حينما يصبح العزف خطيئة

رواية

دفع الله حسن بشير

حينما يصبح العزف خطيئة
المؤلف : دفع الله حسن بشير

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : سبتمبر 2018
رقم الإيداع : 2018/17114
الترقيم الدولي : 978-977-769-230-4

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم -
من صبري أبوعلم - عمارة
أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247

إهداء:

إلى روزالين

ابتسامتك تجعل لهذا الكون معنى!

كلمة:

هذا النيل يجري في دمي
هذا العشب يجعلني أقاوم

{1}

كرِه الحياة بكلّ تفاصيلها، كان ينتظر هذا اليوم بحماس غريب لا يتماشى مع مصيره الذي سيلقاه بعد ساعات. نظر إلى صديقه عمر كومبو، عدوّه القديم ورفيقه في الزنزانة لسنوات طويلة، وقال له بثقةٍ كبيرة:

-كلّنا نعرف أنني برئ. لكن الوزير يرى عكس ذلك. هو يراني مذنب وقاتل. وأردف بثقة أكبر: أنا لم أقتل أحدًا يا عمر كومبو. قتلني الحب.

اليوم وقد اقترب موعد تنفيذ الحكم، لم تبرز في خيالاته عدا صورة والدته، وصديق طفولته أمجد فلسفة. ابتسم وهو يتذكر مقولة صديقه الفيلسوف:الإعدام مجد، وانتصار. اتكأ على سياج الزنزانة الحديدي، أغمض عينيه، وغاص في بحور المجد العميقة.

منذ أن حكم الوزير عليه بالإعدام لقتله عمر كومبو الذي يشاركه الزنزانة الآن، انقلبت حياته رأسًا على عقب. حدث ذلك قبل سبعة أعوام مضت، ولأن اليوم هو آخر يوم له في هذه الحياة البائسة، أخرج ورقة من جيبه كان قد كتبها في أوّل يوم له في زنزانة الفلاسفة الأغبياء المحكوم عليهم بالإعدام، وراح يقرأها على عمر كومبو:

«لا أعرف سبب مجيئي إلى هنا، كل الذي أعرفه أني كنت في طريقي إلى صديقي أمجد فلسفة، لنتناقش حول نظريته الأخيرة عن الجنس، وانتهى بي الحال في مكان لا أعرفه».

أطبق ورقته التي احتفظ بها لسبعِ سنوات كاملة ووضعها في جيبه. هذه الورقة هي آخر ما تبقت له من ذكريات، رغم كتابتها بين جدران الزنزانة، لكنه كان يرى فيها صورة صديقه أمجد فلسفة، وحنان والدته، وروعة حبيبته سارة، وكل الأفكار التي لم تناقش في تلك الليلة البعيدة.

الموت هو الموت. كُلّنا سنموت، بمختلف الطرق سنغادر هذا المكان، سنبارح هذه الزنزانة القّذرة يومًا ما يا لورد، لا تيأس. بهذه الكلمات ظنّ عمر كومبو أنه سيزيل سحابات اليأس عن سماء اللورد، لكنه زاد الطّين بلّة، وأغرق السفن في الوحل.

دخل الجلاد عليهما يخبرهما باقتراب موعد تنفيذ الحكم، وأن الإذن جاهز، والمشنقة جاهزة. ضرب على رقبة اللورد بقوة، ثم أردف بمتعة خاصة: والرّقاب أيضًا جاهزة. ثم وضع الأصفاد عليهما.

ابتسم اللورد ابتسامة غامضة، وبصق في وجه الجلاد. ولأن فمه كان يابسًا، لم تصل شذرات اللعاب إلى وجه الجلاد العبوس. أغلق الجلاد باب الزنزانة ومضى إلى سبيله. ستنتهي حياة اللورد اليوم عند الثامنة صباحًا، وهو الوقت المحدد لتنفيذ الحكم، سيحضر الوزيرشخصيًّا ليُبارك هذه العقوبة. وسيحضر رهط من الجلادين الصغار.

الحقيقة أن عمر كومبو يقبع الآن داخل زنزانة الفلاسفة الاغبياء

المحكوم عليهم بالإعدام، هو لم يمت، ولكن تم التحفظ عليه هو الآخر حتى لا يخرج للناس، ويخبرهم الحقيقة، الحقيقة التي ستدهش العالم أجمع. أهله وأقرباءه بكوا عليه كثيرًا، الآن وبعد هذه السنوات الطويلة ربما نسوه، ولكن ما لايمكن نسيانه أبدًا هو اللورد الذي سيعدم ظُلمًا اليوم.

عندما خرج الجلاد من الزنزانة متجها إلى مكتب مدير السجن، كان عمر كومبو يسرد تفاصيل موته على اللورد:

-جاءوني ليلًا؛ لم أرَ سوى عربة بيضاء، وخمسة رجال مسلحين. اقتادوني إلى منطقة بعيدة، غطّوا وجهي بخرقة سوداء عابقة بالمورفين. كانت الساعة تشير وقتها إلى الحادية عشر ليلًا، السماء صافية، والأنجم تتلألأ في سقف السماء بعناد، الشوارع خالية، خفق قلبي بشدة، بعدها فقدت الوعي، ولم استيقظ إلا بعد عشرة أيام. لحظة استيقاظي أخبروني بأني مت، وأن من قتلني يدعى اللورد، وهو قاتل فترة، متخصص في قتل أفراد الشرطة. أنت لم تقتلني يا صديقي. أنا أعرف. سأله اللورد وهو يُحرّك الأصفاد التي تخنق قدميه ورسغيه، ورقبته مُصدرًا بذلك صوتًا يزعج الجلادين:

-كيف عرفت؟ أجاب، وهو يُقرّب وجهه من وجه اللورد:

-لأنني حيّ. أشاطرك الظلم، والألم. المعاناة، والحرمان. ضحك اللورد وقال له:

-أنسى. أنت ميّتٌ يا كومبو.

السجن هو مكان للعيش رغم أن العيش فيه يكون دائمًا حسبما يشتهيه الجلاد، لكنه على الأقل أفضل من العيش في الموت. هذه كانت فكرة اللورد الأولى عن السجن لكنها تغيرت مع مرور الوقت لتصبح: السجن هو مكان للموت البطيء. في البداية لم يُحب السّجن كأي سجين جديد، نسبة لاختلاف المكان، وانحصار مساحة الحرية فيه. لكنه سرعان ما انخرط في أنشطة السجن الثقافية. كان يخسر كل نزالاته في مسابقة لعبة الشطرنج، تلك المسابقة التي يقيمها السجناء فيما بينهم، لكنه في اليوم الذي هزم فيه حريقة أفضل لاعب شطرنج في السجن، ذاك السجين الذي لا يعرف رقعة غير رقعة الشطرنج، أضحى يحب السجن أكثر، فقط من أجل لعب الشطرنج، وهزم كل المنافسين. ولأن الفوز باللعبة، كان يجلب له قدرًا من المال، ولأنه لم يُهزم منذ خمسة أعوام كاملة أصبح يلقب باللورد. لورد الشطرنج العظيم.

السابعة صباحًا، اقتربت ساعة الموت. لم تتبقَ له سوى ساعة واحدة، عليه أن يعيشها كما ينبغي، وبأفضل طريقة ممكنة، عليه أن يختار أفضل الأشياء، وأقربها إلى نفسه، عليه أن يهيئ نفسه لتلك الرحلة، ذاك المشوار الذي لا يمكن العودة منه أبدًا. كل التفاصيل تزاحمت في رأسه. هل سيدّخر هذه الدقائق من أجل والدته الميتة منذ سنوات؟ والتي كان يحبها حُبًا جمًا، وما زال. أم لحبيبته سارة التي تحبه بجنون، ومستعدة لأن تكون معه في أحلك المواقف والظروف؟ أم سيدّخرها من أجل طفلته فرح؟ التي لم يرها حتى الآن. هل سيقدمها قُربانا لآلهة الكمان العظيمة؟

أم سيستثمرها في تدخين السجائر؟ أم سيفنيها في وداع أصدقائه الجدد؟ رفقاء الزنزانة والمعاناة والآلام.

تتزاحم الأفكار في رأسه، والدقائق تفِر منه لتجلب له ما يخشاه، ما لا يعرفه ولا يتوقعه، ما يظن أنه جميل ليأتي ويدمر جمال ما هو موجود، وما يظن أنه سيِّئ، وقبيح ليأتي ويضفي لمسة من الجمال والروعة على كل جوانب الحياة. كانت الدنيا تتأرجح أمامه، وتميل نحو نهايته، إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة؛«لحظة الإعدام».

قرأ الجلاد وثيقة الإعدام عليهما. اللورد، وعمر كومبو. أضاف وهو يحاول سحب اللورد من زاويته التي يتكئ عليها:

-اليوم سينتهي كل شيء.

منذ أن جيء باللورد إلى سجن الموت في ذلك اليوم البعيد، كان يُنادى باسمه الحقيقي، محمود فخر الدين أيوب، ومنذ أن سطع نجمه كإمبراطور للشطرنج اختفى هذا الاسم إلى الأبد، وبرز بدله لقب آخر يعرفه كل من مرّ على هذا السجن. لدرجة أن الجلاد عندما قرأ وثيقة الإعدام، ذكر اللقب بدلًا عن اسمه الأصلي.

انتظر الجلاد هذه اللحظة بنفاذ صبر ليضع الأنشوطة حول عنقه، ويدفع المنضدة الخشبية بعيدًا، ويكمل واجبه في إرسال روح اللورد إلى العدم. لم تكن هناك عداوة شخصية بينه وبين اللورد، ولا عمر كومبو المقتول الذي لم يمت، ولم يستمع الجلاد يومًا لقصة اللورد الأصلية، لأن اللورد به كبرياء سجين لا يُقهر، فهو لا يحكي قصة حياته أبدًا، ولا يروي

تفاصيل يومه وعاداته لأحد، إيمانًا منه أن الناس يقبّحون كل ما هو جميل. أما ورقته التي يقرأها على كل من سنحت له مقابلته، فهي لم تكن سوى مَنفذ لتفريغ شحنات الفقد والنوستالجيا.

زنزانة الفلاسفة الأغبياء المحكوم عليه بالإعدام فارغة الآن، ببساطة لأن الرجلان سيقا للمشنقة، حتى لا يظن القارئ شيئًا آخر، ويذهب بخياله بعيدًا. وهما يسيران جنبًا إلى جنب، كانا يشكّلان تناقضات عجيبة، فمن المنطقي ألا يسير القاتل والمقتول سويًا، ألا يلتقي خطين متوازيين وإن سارا سويا إلى الأبد، لكن مصير الرجلين كان بمثابة تناقض عجيب، تناقض حيّر الآلهة نفسها، تناقض صنعته يد الوزير، وجعلته واقعًا يعيشه اللورد، وعمر كومبو وحدهما.

دخل الوزير المبجل إلى غرفة الإعدام، وهي غرفة صغيرة تقع في منطقة وسطى، تسمح لجميع السجناء برؤية اللحظة الحاسمة، لم يكن بمقدور السجناء مشاهدة جسد المحكوم عليه بالإعدام كاملًا، ما يمكنهم رؤيته هي رقبته فقط، التي عندما تميل إلى الأمام يدرك السجناء أن صديقهم قد فارقهم إلى حياة أخرى. لحظة دخول الوزير المبجل، وقبل أن يمنح الجلاد الإذن بإعدام عمر كومبو أولًا، ثم اللورد ثانيًا، أزاح الوزير المبجل الغطاء الأسود عن وجهيهما. وقال موجهًا كلماته للجلاد:

-ماهي أمنيتهما الأخيرة؟

يا له من رجل شهم، وكريم. الهيبة التي أظهرها لا يمكن تجاهلها بالمرّة، ولأن اللورد فكّر في أمنيته الأخيرة قبل دخوله إلى هذه الغرفة

اللعينة، كان من السّهل عليه أن يجيب قبل عمر كومبو، لكن الجلاد منعه، ودفعه جانبًا، ولمّا كان الوزير المبجل هو صاحب القرار، الآمر والناهي سمح لـ اللورد بقول أمنيته الأخيرة.

-أمنيتي أن أحظى بجولة شطرنج أخيرة. ثم أردف: معك. وأشار بسبّابته نحو الوزير.

ابتسم الوزير المبجل، وطلب من الجلادين الصغار إحضار صندوق الشطرنج في الحال. أما عمر كومبو المسكين، فكانت أمنيته أن يُحظى بمتابعة المباراة.

من السذاجة غير المبررة أن أحوّل غرفة الإعدام الصغيرة، والمخيفة إلى مقهى للعب الشطرنج، ولكن إذا كانت هذه السذاجة تنقذ اللورد على الأقل من حبْل المشنقة فلا بأس أن نحول جميع غرف الإعدام في العالم إلى مقاهي شطرنج.

جلس اللورد، والوزير المبجل على كرسيين متقابلَين، وتقاسما المنضدة التي تستعمل في تنفيذ حكم الإعدام في اللعب. كان السجناء ينتظرون رؤية رقبة اللورد تميل إلى الأمام، ينتظرون بشغف أن يتدفق دمه، ويسيل كشلال على الأرض، وعندما جاءت الثامنة صباحًا، ولم تسقط أي رقبة إلى الأمام، راح أغلب السجناء يضربون على السياج الحديدية بأكوابهم البلاستيكية، احتجاجًا على تأخير تنفيذ الحكم.

في تلك الأثناء كان اللورد هادئًا يحاصر بيادق الوزير المبجل مستخدمًا افتتاحية نابليون، وهي من أساسيات لعبة الشطرنج. سرعة نقل البيدق،

ومحاصرة الملك بنقلات غير متوقعة، والهجوم المتواصل هذه التقنيات ساهمت في إنهاء اللعبة بسرعة. خسِر الوزير المبجل الجولة، خسرها بسرعة خيالية، وبعبارة جديدة عليه، فكما هو متوقع أن تنتهي اللعبة بمحاصرة الملك، وبعبارة متعارف عليها وسط لاعبي الشطرنج وهي: كش ملك، أو كش مات، أو ربما تختصر كش فقط. لكن ما قاله اللورد كان مختلفًا نوعًا ما، ولا علاقة له بعادات وتقاليد اللعبة، لأن النهاية في جولة الشطرنج تكون دائمًا بالموت. موت الملك. قال اللورد: كِش حي.

في الحقيقة كانت هذه الجملة بمثابة رسالة مباشرة إلى الوزير المبجل، الذي هبط من السماء ليحكم على الناس بالإعدام، ليوقف تنفيذ الحكم إلى أجل غير مسمى. ويطلق سراحه، أو على الأقل يُرجعه إلى زنزانة الفلاسفة الأغبياء. لكن، طالب الوزير المبجل بجولة أخرى، فهو لم يقتنع بخسارته، ولم يستسلم بعد، أو ربما لأنه لم يكن مركزًا بما فيه الكفاية، فزوجته تطِنُّ في رأسه طنينًا أشدّ من طنينِ النحل، وابنته سارة فقدت عذريتها، حبُلت عن طريق الخطأ، وأنجبت طفلة على يد عازف كمان قبل سبع سنوات. وبما أنني ذكرت اسم سارة، قد يدرك القارئ العادي أنها سارة عشيقة اللورد ذاتها، وأن ما يجمع الاثنان الآن هو ثأر قديم، لا علاقة له بالسجن وحبل المشنقة.

خسر الوزير المبجل جولته الثانية، وقد كان من دواعي هيبته وكرامته ألا يطالب بجولة أخرى. ولأن اللورد كان مستعدًا لهزمه ألف مرة، فكل الظروف كانت تصب في صالحه، وتمنحه أفضليةً على خصمه، وتقوّي

موقفه أكثر فأكثر، فتصبح خسارته مستحيلة.

الآن قد يتساءل القارئ المستعجل عن مصير اللورد وعمر كومبو، هل سيشنقان؟ هل سيؤجل حكم الإعدام؟ وبما أنني تجاهلت شخصية عمر كومبو، وركزت على شخصية اللورد قد يتنبأ القارئ بمشهد تنفيذ الحكم على عمر كومبو بالإعدام. وقد يتوقع القارئ أيضًا، الذي يتولى سرد الأحداث نيابة عن الراوي في بعض الأحيان، أن يطالب الوزير المبجل بجولات أخرى، في وقت آخر ليسترد كرامته، وهذا ما حدث بالفعل.

طالب الوزير المبجل الذي هبط من السماء ليحكم على الناس بالإعدام، بتنفيذ حكم الإعدام على عمر كومبو بسرعة. والإبقاء على اللورد لأجل غير مسمى. ربما سيزور الوزير سجن الموت في الغد، أو ربما بعده، أو ربما لن يأتي إلى الأبد.

***

{2}

قبل سبع سنوات كانت الأمور تسير بصورة طبيعية مع محمود فخر الدين، فوالده الذي انفصل عن والدته وتزوج بفتاة صغيرة في السّن، سجّل له المنزل باسمه، وأعطاه مبلغًا من المال لينشئ عمله الخاص، ويعتمد على نفسه. ذات مساء بعيد خاض فخر الدين أيوب مع ابنه جولة شطرنج أخيرة، وترك له المنزل ومضى.

فكّر محمود فخر الدين في افتتاح مكتبة للقراءة، ولكنه كان يتراجع عن فكرته في اللحظات الأخيرة بحجة أن الإقبال على القراءة ضعيف جدًا، وهو لا يرغب أن يعيش وحيدًا ويموت وحيدًا بين كومة من الكتب. فبعد تخرّجه من كلية الموسيقى والدراما وفشله في الحصول على عمل، كعازف كمان محترف، وجد محمود فخر الدين نفسه مضطرًا للقيام بأعمال جديدة، ومغامرات خطرة، تختلف عمّا درسه في الجامعة.

كان ينفق كل ماله على إقامة معرض صغير للكتاب، يجتمع فيه المثقفون والمهتمون، وهم على قلّتهم كانوا يزيّنون معرضه بأفكارهم النيرة والمتقدمة، كان صديقه أمجد فلسفة يساعده في الترتيب والتجهيز لمعرض كتابه المتنقل، فتارة يقيمون معرضهم في الأحياء الفقيرة، حيث

يأتي السكارى والمخمورون، ويطيحون بالكتب على الأرض. وتارة يقيمونه في الأحياء الغنية، وينتظرون زوارًا لا يأتون أبدًا. ولأن انتظار أشخاص لا يأتون أمر محرج للغاية، ومدمّر في آن واحد، قرر محمود فخرالدين العودة إلى مجاله الأول، الموسيقى، لعزف الحان ترد إليه الروح من جديد، وتدفعه لمواصلة السير في دروب الحياة.

يعيش محمود فخر الدين مع والدته، في منزلهم الذي بات يملكه الآن، المنزل على كبر حجمه، وخلوه من أب وأخوة، إلا أنه يعبق بالحب والحنان، فماذا ستقدم أم مطلقة لولدها الوحيد الذي يقيم معها في بيت واحد غير الحب والحنان؟ كانت أمه تدعو الله أن يوفقه، ويرزقه بفتاة جميلة، حسنة الخلق، فضة، بضة، تعينه على تخطي عقبات الحياة، وفك طلاسمها، وما زاد تعلقها به أكثر، بغض النظر عن كونه ابنها الوحيد، هو تأليفه الدائم لمقطوعات موسيقية عنها.

كانت تصحو على أنغام موسيقاه، وتنام عليها، تسمع الألحان الشاردة من غرفته، فيقشعر جلدها، وتتوسع مساماتها، وينبض قلبها بالفرح. وبما أن والده اختفى، ولم يعد يزورهما في الآونة الأخيرة، انصب كل تركيزه على والدته، ولم يجد محمود فخر الدين سببًا منطقيًا يدفعه للحاق بوالده، مطاردته، والبحث عنه، فأمه الأميرة سعاد كما يناديها كانت تعني له كل شيء، فهي أمه وأخته، وأخوه ووالده، وحبيبته. بالنسبة لأمجد فلسفة، فإن الآلهة وحدها تعرف مقدار حب الأميرة سعاد لولدها، هذا الحب الذي تضاعف ألف مرة بعد طلاقها من فخر الدين أيوب.

أن تجد شخصًا يحبك بهذا القدر فهذا يُصّعب من مهمة الآخرين في الحصول على مساحة صغيرة في قلبك، لذلك كانت محاولة سامية، وهي صديقة قديمة تعرّف عليها محمود فخر الدين في الجامعة، في التقرب منه فاشلة. رغم تقارب شخصيته وشخصيتها، أفكاره وأفكارها، لكن حاجز حب أمه كان يطل بين كل ابتسامة تبادلاها، وكل رشفة عصير أخذاها في كافتيريا الجامعة. ولأنني ألمحت بوجود امرأة في حياته تدعى سارة، قد يتساءل القارئ الآن، إذا لم تكن هناك مساحة حب إضافية في قلب محمود فخر الدين، فكيف أحب سارة إذن؟

لم يفكّر محمود فخر الدين في الحب إلا بعد وفاة والدته بسنوات، إن أردنا الدقة، بعد ثلاثة سنوات بالتحديد. رحلت الأميرة سعاد وتركته وحيدًا ومُحطّمًا. كان يسهر الليالي يطوف البيت كله، علّه يجدها مختبئة في مكان ما. يضع كمانه على كتفه، ويبحث عنها وعندما ييأس من البحث، ويدرك جيدًا أن لا طائل من البحث عن ميتة، يدخل إلى غرفتها ويعزف ألحانًا حزينة. يحيط نفسه بثيابها، يبكي ويعزف. في تلك المرحلة الحرجة من حياته، أدرك صحة مقولة صديقه أمجد فلسفة: يدرك الإنسان أنه أصبح بلا معنى فور موت والدته.

عاد والده بعد وفاة أمه بيومين، ومكث معه ساعتين كاملتين، شاركه خلالهما الحزن والوجع، ثم غادر إلى مدينته، وزوجته، وأطفاله الجدد. أمجد فلسفة تأثر أيضًا بموت الأميرة سعاد، لأنه يعرف قيمتها عند صديقه، ولأنها كانت تحضر لهما عصير (القونقليز) اللذيذ، لذلك عندما

اتصل به محمود فخر الدين في الثالثة فجرًا، مُخبرًا إياه بوفاة والدته في عربة الإسعاف، لم يتوانى عن اللحاق به، والوقوف معه في محنته، ومساعدته على تخطي هذه اللحظات الصعبة.

أخبره الممرض المصاحب لعربة الإسعاف، أن والدته تعرضت لجلطة دماغية، وإنها ربما ستموت قبل الوصول إلى المستشفى. في تلك اللحظات بالذات، وعندما أظهر جهاز (Lifepak 15)إشارات حمراء متعرّجة، وصافرات إنذارحزينة تشير بتوقف قلب والدته، أسقط رأسه إلى صدره بأسى، وأغلق عينيها الرائعتين بكفّه.

الأميرة سعاد كانت رائعة، ويشهد على روعتها كل سكان الحي. أغلقت المدرسة الأساسية التي كانت تدرس بها أبوابها لشهرٍ كامل، حتى أطفال الحي الصغار عندما يسألوا عن سبب غيابهم عن المدرسة بعد استئناف الدراسة فيها، كانوا يجيبون بحزن: غبنا من أجل ماما سعاد.

انقضت سنتان على وفاتها، وفي كل سنة تمر كان تعلقه بها يزداد، وألحانه الحزينة تزداد حزنًا، ورواسب توقه إليها تتمظهر في مقتنياتها، ملابسها، سجادتها التي كانت تصلي عليها، وفي رائحتها التي لم تتلاشى من فضاء البيت. خلال هذه الفترة أنجز محمود فخر الدين 1460 معزوفة من أجل أمه، بواقع معزوفتين في اليوم الواحد. والغريب في الأمر أن كل المعزوفات كانت تحمل الاسم نفسه: الأميرة سعاد. وبالتالي قد يستحيل على أي انسان آخر تمييز معزوفة الأميرة سعاد رقم 499 عن

معزوفة الأميرة سعاد رقم 500 مثلا، لكنه كان قادرًا على التمييز بينها بسهولة ويسر كأنه يميز بين اللونين الأبيض والأسود.

البيت الذي يخلو من أم أشبه بكهف مهجور، تسكنه الوحشة، والحرمان. بدت هذه المقولة صحيحة في نظره، وزاد عليها من عنده: والقذارة. والدته كانت تنظف غرفته يوميًا، وتنفض الغبار عن أوتار الكمان المشدودة فتصدر نغمة هادئة، يصحو على أثرها من النوم كل صباح، أما الآن اضطربت ساعات نومه، وامتلأت غرفته بأعقاب السجائر، والألحان الحزينة.

للخروج من هذا المأزق دفعه صديقه أمجد فلسفة للمشاركة في مسابقة: أجمل معزوفة كمان التي ينظمها مركز سارة للموسيقى. لم يُرحب بالفكرة في بادئ الأمر، وعاتب صديقه بشدة لأنه كان يرى أن مشاركة هذه المعزوفات هي جريمة لا تُغتفر، ما دفعه لرفض الفكرة نهائيًا. قال وهو يهم بالخروج من الغرفة، غرفة الأميرة سعاد:

-أنا لن أشارك في هذه المهزلة يا أمجد.

-مهزلة؟

-نعم.

-هل تصف الموسيقى بالمهزلة؟

-لا. المسابقة مهزلة. أنا أعزف من أجل أمي، ولا يجدر بي أن أشارك بمعزوفاتها.

-شارك من أجلها فقط.

-دعني أفكر في الأمر.

-ليس هناك وقتًا، يجب أن تفكر الآن، وتعطيني ردك حالًا.

نتج عن هذا الحوار موافقة مشروطة، نعم وافق محمود فخر الدين على المشاركة في المسابقة لكن بشرط ألا يُمنح الجائزة في حال فاز بها، وبشرط آخر هو أن تسمى المقطوعات الموسيقية بالأرقام. كان هدفه الأساسي أن يَسْمع الآخرين ألحانه، أن يحسّوا بأوجاعه دون أن يعيشوها، دون أن يتعرفوا على والدته، دون أن يقحموا أنفسهم في معركته الخاصة.

تكفل أمجد فلسفة بإرسال البيانات المطلوبة لمركز سارة للموسيقى، وكانت المعزوفة التي قرر محمود فخر الدين المشاركة بها تحمل اسم معزوفة الأميرة سعاد رقم 321. في الحقيقة لم يكن هناك منطق من اختيار هذه المقطوعة بالذات، لأن الاختيار كان عشوائيًا، وتحت ظروف حرجة، وبما أن كل مقطوعاته تضج بالحزن والفقد، كل الأرقام كانت مستعدة لمواساته، والترحم على روح والدته.

مركز سارة للموسيقى يقع في منتصف مدينة الخرطوم، وهو مركز يهتم بالفن والموسيقى، والرقص. لكن نادرًا ما تقام فيه مسابقات تخص الرقص، لأسباب تتعلق بثقافة المجتمع. فهناك ثقافة سائدة بين عامة الناس مفادها أن الرقص هو الجنس نفسه، وأن المرأة التي تسمح لنفسها برقصة مع رجل، ينتهي بها الحال في السرير. لذلك كانت أغلب الفتيات يرفضن الرقص مع الرجال، لا ممارسة الجنس.

جهز محمود فخر الدين كمانه، ضبط الأوتار، وعزف لوحده مقطوعة

الأميرة سعاد رقم 1176. كانت هذه المقطوعة من أحزن المقطوعات إلى قلبه، وأكثرها دمارًا، وهلاكًا. كانت الأنغام تتدفق من الأوتار بأسى لدرجة أن أمجد فلسفة لحظة دخوله إلى الغرفة بكى بصوت مسموع، وأحاط محمود فخر الدين بذراعيه. ثم أطلق على هذه المقطوعة اسم: بؤس العالم، وهو عنوان لكتاب (بيير بورديو) قرأه ليلة البارحة. لم يكتفِ أمجد فلسفة بتغيير اسم المعزوفة فحسب، وإنما طالب بعزفها في المسابقة بدلًا عن معزوفة الأميرة سعاد رقم 321.

ذاك اليوم خرج الاثنان من البيت، واتّجها إلى مركز سارة للموسيقى. لحظة وصولهما كانت المسابقة قد انطلقت بالفعل قبل نصف ساعة، ما يعني أن ثلاثة متسابقين على الأقل قدموا عروضهم. فالوقت المسموح به هو عشر دقائق فقط.

الجمهور الذي حضر المسابقة كان غفيرًا جدًا. امتلأ المسرح إلى آخره، المقاعد الجانبية امتلأت، ولم تكن هناك مقاعد فارغة للجلوس عليها. لدرجة أن المقعد المخصص لمحمود فخر الدين (المتسابق العاشر) جلست عليه سيدة أعمال مشهورة، وراحت تستمتع بمعزوفة المتسابق الرابع. تبقى خمسة متسابقين، بعدهم يكون الدور على محمود فخر الدين، الذي عليه أن يُبكي المسرح كله من أجل والدته.

ألقى أمجد فلسفة نظرة سريعة على أنحاء المسرح، بينما كان محمود فخر الدين ينظر إلى المتسابقة الخامسة نظرة اعجاب، واندهاش، كانت معزوفتها تندرج تحت النمط الوطني، عن انقسام الأرض، وتشظيها،

عن الجوع والفقر والمرض، عن الأمجاد الغابرة، والمستقبل المجهول. بعد أن أنهت المتسابقة معزوفتها، صفق لها الجمهور بحماس. وغادرت المنصة لتجلس بالقرب من سيدة الأعمال المشهورة.

ما كان يخشاه محمود فخر الدين حقًا هو الالتقاء بسامية، وهذا ما لم يتوقعه أبدًا أن يلتقيها مصادفة في مسابقة عزف.

زاد ارتباكه وهو يراها تجلس بالقرب من تلك السيدة التي كانت تضع ساقًا على ساق. لكن ما زاد ارتباكه أكثر، وأرسل موجات من التوتر إلى أوصاله هي حركات تلك الفتاة الأنيقة، التي كانت ترافق المتسابقين بعد انتهاء معزوفاتهم. لم يكن هناك مجال للتخمين، أو الشك أن هذه الفتاة مهمة جدًا، لأنها كانت مميزة، ولامعة، ونشطة، ويمكن الشعور بأهميتها فور الدخول إلى المسرح. كانت من أولئك الناس الذين يعرفون كيفية الوصول إلى القلوب بسرعة، دون أن يتكلفوا عناء التقرب منك، والتحدث معك، كأن بهم مغناطيس للجذب. وبما أن محمود فخر الدين كان يحاول جاهدًا الافتكاك من الموجات المغناطيسية التي ضربته، وألصقته في مكانه وكادت أن تسحب كمانه إلى المنصة، نسي دوره، وترتيبه. أهو التالي؟ أم أن دوره قد ولّى.

والآن مع المتسابق العاشر: محمود فخر الدين.

قالتها بصورة مختلفة، وبطريقة لم يسمعها من قبل. كان صوتها يتسلق الدَرَج بهدوء ليصل إليه حيث هو. تأخر في الوصول إلى المنصة لأنه ما زال يستوعب عنفوان هذا الصوت. مازال يستوعب جماله، وعذوبته،

قوته، ودقّته، أما هي فاستمرت بتكرار النداء عدة مرات. كان يضع الكمان على كتفه، ويحدق في الورقة التي تمسكها بين أناملها، ويحدث نفسه، ويكلمها بكلام لا يعرفه، وبعبارات ليست في محلها.

عندما سمع أمجد فلسفة النداء، كان قد وجد له مكانًا يجلس عليه، لأن المتسابقة السابعة لم تكن تجيد العزف. كان عزفها مملًا بعض الشيء ما دفع أحد الحضور لترك مقعده، والخروج من المسرح. ظل أمجد فلسفة يلتفت يمنة ويسرة، أمامه ووراءه ليعثر على صديقه، العازف المسكين. لكنه لم يجده. الحقيقة أنه كان يقف وراءه، ولا يفصلهما سوى مقعدين فقط. ورغم أن أمجد فلسفة رأى جزءً صغيرًا من حقيبة الكمان، لكنه لم يتمكن من تمييزه، فصوت الفتاة التي تنادي الآن يشغله عن الالتفات إلى الوراء. هو صوتها يجبره على الإصغاء، ويضع بين يديه خيارين اثنين فقط، أما الانتباه، أو الانتباه.

ما جعلت بداية محمود فخر الدين مميزة، ليس لأنه تأخر في الوصول إلى المنصة بنصف ساعة، ولا لأنه يجيد العزف أكثر من المتسابقة السابعة، وإنما لأنه بدأ العزف حيث هو. لحظة خروج الجمهور من المسرح، وعندما كانت الأبواب مزدحمة، والحديث يدور عن المتسابق الغائب، ظهر محمود فخر الدين من الخلف كشبح.

من الصعوبة المنطقية الآن إرجاع الجمهور إلى الداخل، لأن الملل الذي حسوه، والمتعة التي عاشوها ستقفان عند الباب، ثم تذكّران العائدين إلى المقاعد بما يوجد في أرجاء المسرح من الداخل. لكن ألحانه الحزينة،

وبكاء كمانه الذي يفطر القلب، وحركته في نزول الدرج من الأعلى إلى الأسفل، نغمة، نغمة، أعادت الجمهور الى المسرح من جديد، حتى سيدة الأعمال المشهورة، والتي أدارت محرك سيارتها وانطلقت، عادت لتسمع هذه الأنغام الفريدة، لكنها لم تجد مكانًا تجلس عليه فظلت واقفة خلف الكواليس حتى النهاية.

وصل محمود فخر الدين إلى المنصة، ثم جلس على الكرسي المخصص للمتسابقين، أغمض عينيه، ومارس حزنه باحترافية. لم تكن أمامه نوتة موسيقية، على عكس جميع المتسابقين الذين كانوا يضعون أمامهم نوتاتهم الخاصة، ولم يكن في حاجة لميكرفون، لأن الألحان الحزينة تفقد صفة الحزن عندما تعالج بمكبرات الصوت، فتصبح كالضوضاء. لذلك أزاح الميكرفون بعيدًا، وراح يقتل الجمهور بعزفه، وبلحن كمانه الحقيقي.

سارة كانت خلف الكواليس، أصابتها رعشة حزن عميقة، أما سيدة الأعمال المشهورة التي كانت تقف إلى جوارها وتتبع الألحان من بين فتحات الستائر فجثت على ركبتيها وغرقت في نوبة بكاء هستيرية. كل الدموع زُرفت في تلك الليلة. في الحقيقة كانت مقطوعة الأميرة سعاد رقم 1176أشبه بدعوة للبكاء، أو ربما دعوة لتفريغ شحنات الحزن الزائدة. وهو يعزف معزوفته تلك، التي وُصفت فيما بعد بأنها أفضل مقطوعة حزنٍ في التاريخ، لم يفكر بالمسرح الذي تحول إلى مأتم، لأن كل تركيزه كان منصبًا حول روح والدته، وشيئًا من روعة تلك الفتاة التي

تقبع خلف الستائر.

بعد الانتهاء من معزوفته، ضجّ المسرح بالتصفيق والحماسة، رغم أن الحزن سيطر على جنباته قبل لحظات. لعزفه لمسة سحرية تنقل المشاعر ما بين الضحك والبكاء، ما بين الحزن والفرح. ولأن سارة رافقت كل المتسابقين كان لابد لها أن ترافقه. وكان هذا أول لقاء حقيقي بينهما. لم تكن سارة تعرف عن محمود فخر الدين في ذلك الوقت شيئًا، عدا أنه عازف كمان حزين، أو أنه رجل جاء من السماء ليملأ الأرض بالمقطوعات الحزينة، كما قالت سيدة الأعمال المشهورة.

وهما يسيران جنبًا إلى جنب، كانت سارة تحاول إخفاء دموعها، أما هو فكان يُدرك جيّدًا أن هذه الدموع سببها هو، أنزلتها مقطوعته اللعينة، في تلك اللحظة بالذات شتم محمود فخر الدين كل آلات الكمان في العالم، ووصفها باللعينة، ولولا أن والدته تأتيه من خلال هذه الآلة، ولولا أن صديقه أمجد فلسفة يراقبه لرمى بالكمان إلى الأرض وحطّمه، وحوله إلى أجزاء صغيرة.

التصفيق المختلط بالبكاء هو الشّعور المسيطر على المسرح الآن. وليس هناك أي مجال لشعور آخر. أخذت سارة الميكرفون الذي دفعه محمود فخر الدين بعيدًا أثناء عزفه، وعملت على تهدئة الجمهور الحزين ومواساته. ثم وصفت مقطوعته، بعد الاطّلاع على الورقة التي بيدها بأنها أفضل مقطوعة حزن في التاريخ.

شيء ما داخله حسّه على التسلل إلى الورقة التي بحوزتها، كان يدرك

جيدًا أن المقطوعة التي يفترض أن يعزفها، هي مقطوعة الأميرة سعاد رقم 321، وليست أية مقطوعة أخرى، لأن البيانات التي أرسلها أمجد فلسفة إلى مركز سارة للموسيقى كانت تضع هذه المقطوعة وبصورة واضحة كمقطوعة مسرح، وهي المقطوعات التي تقدم إلى الجمهور تقابلها مقطوعات تجريبية أخرى. لذلك لم يكن الأمر مفاجئ بالنسبة له، عندما قرأ اسم المقطوعة، أو فلنقل أرقامها، ولم يتفاجأ أيضًا عندما جاء المتسابقين إلى المنصة ثانية، بمن فيهم سامية، لتحيّته وأخذ الصور التّذكارية معه.

ينتظر القارئ أن يمنح محمود فخر الدين جائزة المسابقة التي لن يأخذها، وهذا ما ذكرته في فقرات سابقة: (نعم وافق محمود فخر الدين على المشاركة في المسابقة لكن بشرط ألا يُمنح الجائزة في حال فاز بها) لأن البروباغاندا التي استعملتها في الترويج لعزف محمود فخر الدين، قد تجعل ذاك القارئ يؤمن تماما أن هذا العازف الحزين سينال الجائزة بكل تأكيد. لكن القارئ الذكي المتتبع للأحداث يدرك جيدا أن الجائزة ذهبت لمتسابق آخر وهذا مالم أذكره بصورة مباشرة، لكنني ألمحت له في هذه الفقرة: (لحظة خروج الجمهور من المسرح، وعندما كانت الأبواب مزدحمة، والحديث يدور عن المتسابق الغائب، ظهر محمود فخر الدين من الخلف كشبح. من الصعوبة المنطقية الآن ارجاع الجمهور إلى الداخل، لأن الملل الذي حسوه، والمتعة التي عاشوها ستقفان عند الباب، ثم تذكران العائدين إلى المقاعد بما يوجد في أرجاء المسرح من الداخل.

لكن ألحانه الحزينة، وبكاء كمانه الذي يفطر القلب، وحركته في نزول الدرج من الأعلى إلى الأسفل، نغمة، نغمة، أعادت الجمهور الى المسرح من جديد) فخروج الجمهور في هذه الحالة، مرتبط دائما بانتهاء العرض وتسليم الجوائز للفائزين. وبالتالي فإن محمود فخر الدين لم يفز بالمسابقة، لأنه تأخر في مراقبة صوت سارة الأبنوسي الجميل.

بعد أخذ الصور التذكارية، جاءت سيدة الأعمال المشهورة إلى محمود فخر الدين وعبّرت له عن اعجابها الشديد بعزفه الرائع، واحساسه العميق في نقل تجربته الحياتية عبر أوتاره، ثم قدمت له بطاقة صغيرة حشرها في جيب سترته دون أن يراها، كانت تود التحدث معه عن الموسيقى، العزف، الألحان، أو عن الفن عموما، أو على الأقل عن أي موضوع آخر من شأنه أن يبقيهما لدقائق أخرى، لكنه لم يبدِ استعدادا للتحدث معها، وهذا ما أشعرها بالحرج. على الرغم من أن عدم استعداده ذاك لم يكن مقصودا أو متعمدا شعرت سيدة الأعمال المشهورة بأنها أحقر مخلوقة في العالم. في هذه اللحظة بالذات تعلمت الدرس القائل: في الحياة؛ رغم أهميتك وكثرة الأموال التي تغرق حسابك البنكي، ورغم المكانة المهمة التي تشغلها في المجتمع، والإنجازات التي حققتها، تصبح حقيراً جدا في بعض الأوقات، لأن الحقارة شعور تخلقه أنت، ترعاه وتهتم به وحدك.

أول كلمة قالها محمود فخر الدين لسارة كانت: شكراً. وأول كلمة قالتها له بالمقابل كانت شكراً. ولولا أن سيدة الأعمال المشهورة قطعت عليهما الحديث، لتعبر إلى خارج المسرح مُحمّلة بخيباتها وحقارتها، ربما

كانت الظروف ستسعفهما لتبادل الكلمات والتعرّف على بعضهما أكثر. انتهت تلك الليلة الجميلة بكلمة شكراً التي ربما لا تعني شيئا لسارة، لكنها كانت تعني الكثير والكثير لمحمود فخر الدين.

أثناء رجوعهما إلى المنزل سأل أمجد فلسفة صديقه محمود فخر الدين عن سر هذا التغير المفاجئ الذي طرأ عليه، سر هذه الابتسامة التي تعانق شفتيه، سر شحنات الأمل وحب الحياة التي سرت فجأة في أوصاله فجأة، واتهمه بنسيان والدته، التي عليه أن يحزن عليها مدى الدهر، ويعزف لأجلها المزيد من المقطوعات الحزينة، واستفزه بالقول:

-يبدو أننا سنسمع مقطوعات عن الحب.

في تلك اللحظة لم يرد محمود فخر الدين على مضايقات صديقه، لأنه صديق جيد، والأصدقاء الجيِّدون يتجاهلون المضايقات الصغيرة. كما أن لديه قدرة خارقة على تحمُّل مثل هذه الاستفزازات، هو من نوعية الأشخاص الذين لا يُستَفزُّون أبدًا، أو لا يقعون في شباك الاستفزاز بسهولة، كان يعرف كيفية الانسحاب من هذه الشِّباك دون أن يقع، دون أن يتم القبض عليه. كسمكة ذكية تدخل الشباك مع سمكات أخريات في البداية، ولكنها تُودِّعهن في النهاية عندما يسحب الصياد شبكته إلى اليابسة.

أما سارة فكانت معجبة أشد الأعجاب بهذا الرجل الحزين، هذا المخلوق الذي جاء من كوكبٍ مجهول لينشر الحزن في أرجاء مسرحها، كانت شاردة وتائهة به، بعزفه بالتحديد. بالكاد تتذكر اسمه، شخصيته،

عيناه المغمضتين، رقبته المحنيّة إلى كتفه، ثبات قدميه على الأرضية، والحذاء الذي ينتعله. وبما أنها كانت تُسجّل، وتدوِّن المواقف المهمة والاستثنائية في حياتها، والأشخاص الجدد الذين صادفتهم في طريقها، سيشرف محمود فخر الدين دفتر يومياتها هذه الليلة.

كان ضيفًا ثقيلًا على الكتابة، لقلّة وشح التفاصيل التِّي تعرفها عنه، لم تعرف سارة من أين تبدأ الكتابة، وأين تنتهي؟ بل لم تعرف أصلًا ماذا ستكتب؟ قلّبت دفتر يوميّاتها صفحة صفحة، كانت تقرأ ما كتبته وتضحك على سذاجة تلك الكلمات والمواقف. دِراميّة الموقِف الذي جمعها بالفنّانة التشكيلية أماني، وغرابة الصُّدفة التي جاءت بها إلى عازف الجيتار إيهاب المجنون، وسخرية القدر التي جعلت بائع الخضروات إبراهيم يستحوذ على المساحة الأكبر في دفتر يومياتها. وعازف الكمان جمال المبتَكِر، الذي التقته في المسابقة الماضية.

بدون إحساس بالذنب شطبت سارة عنوان المدونة الموسومة جمال المبتكر، وعنونتها فخر الدين الحزين. لم يكن هناك منطق معين وراء ما قامت به، لأن المنطق في رحاب محمود فخر الدين يتبخر كالماء الساخن، ولم يكن هناك مجال لمقارنة عزف الرجلين، لأن تجاربهما تختلف ولأن كل التجارب مهمة في سياقها اللحظي.

وضعت سارة دفترها الذي ظل يرافقها لسنوات طويلة على صدرها، والذي لطخته ببعض التعديلات غير الحقيقية، أطاحت بمفتاح سيارتها بعيدًا، حركت قدميها الناعمتين لتقلع حذاءها ذو الكعب العالي،

أطفأت أضواء غرفتها وغرقت في نوم عميق.

عندما استيقظت في اليوم التالي أدركت أنها لم تخطئ أبدًا في تغيير اسم المدونة، بل أنها كانت ستخطئ إن لم تقم بتغيير الاسم، لأن تلك المدونة كانت تخص محمود فخر الدين وحده، تخصه هو بالذات، رغم حداثة معرفتها به، أو لنقل رغم حداثة استماعها لعزفه إلا أنها وجدته أكثر ابتكارًا من أي شخص آخر عرفته، وبالتالي فإن مدونة جمال المبتكِر لم تكن تعني أن هناك شخص مبتكِر ويسمى جمال، وإنما دلّت على أن المبتكر إنسان جميل، وهذا ما شعرت به أثناء عزف محمود فخر الدين.

***

{3}

بدأت سيدة الأعمال المشهورة تطارد محمود فخر الدين. عرضت عليه مبلغًا ماليًا ضخمًا لقاء تسجيل تلك المقطوعات، لكنه رفض الفكرة بالمرة، اعتبرها مباراة في الأخلاق وأعلن خسارته من الجولة الأولى. في الوقت الذي كان ينتظر فيه بريدًا إلكترونيًا من سارة التي لا تفكر في إرسال أيّة رسائل حتى الآن وصلته رسالة أخرى. لم يكن المرسل مجهولًا، لكن محتوى الرسالة كان غريبًا بعض الشيء. رغم أن من أرسلت الرسالة كانت واثقة من نفسها، لأنها ختمت الرسالة بعبارة: (أنا متأكدة بأنك لن تستطيع مقاومة هذا العرض) إلا أن محمود فخر الدين أطاح بثقتها بعيدًا، وردّبثقة أكبر: (المال لا يشتري هذه المقطوعات) ردت المرسلة: (ماذا يشتريها إذن؟).

لم يكلف محمود فخر الدين نفسه عناء الرد على هذه الرسالة، رغم حيرته وتعجبه من هذا الأسلوب المادي المتغطرس. كان متأكد تمامًا أن هذه الفتاة التي تختبئ خلف الكيبورد وتراسله لها علاقة بما حدث في المسرح، لها صلة بذاك اليوم الرائع، بذاك العزف الحزين الذي سيبقى مُعلّقًا في ذاكرة السامعين له، والسامعين عنه، لذلك سار إلى غرفة والدته

بسرعة، سحب سترته من المشجب، بحث عن تلك البطاقة الصغيرة التي دسها في جيب السترة ذاك اليوم. أخرجها من أعماق السترة، وقرأ فقرة البريد الإلكتروني أولًا. لقد كانت هي؛ سيدة الأعمال المشهورة بشحمها ولحمها وعنوان بريدها الإلكتروني.

فكّرت سارة في محمود فخر الدين كثيرًا، فكرت في موسيقاه، وكمانه المجنون، فكرت في طريقته الفريدة في العزف، ومعانقة تلك الآلة الحزينة، فكرت في حياته الخاصة، كيف يعيش؟ كيف يأكل ويشرب؟ هل يقرأ الكتب؟ هل يحب الفتيات؟ هل ينام عند الحادية عشر مساءً؟ أم يساهر الليل كلّه؟ كانت تبحث عن تفاصيل تخصه، عن أشياء تريدها فيه، عن حقائق صنعته، وأنتجت شخصيته التي رأتها ذات عزف. كان رجل يصعب التكهن به، يستحيل عليها العثور عليه مصادفة. كان من أولئك الرجال الذين يظهرون مرة، يغرسون انطباعهم الجميل، ثم يغيبون إلى الأبد.

لم تكتفِ سارة بالتفكير به وحسب، وإنما أخذ اسمه يظهر في محادثاتها السرية مع صديقتها ليلى، لدرجة أن ليلى أدركت من أول كلمة أن صديقتها قد وقعت في حب رجل لا تعرف عنه شيئًا، عدا أنه اشترك في مسابقة نظمها مركز سارة للموسيقى. الحب إذن جاء من بعيد، جاء يركب أوتار الكمان، ويتدفق بانسيابية، ليغرقهما معا، دون أن يجمعهما.

اللحظات الأولى للحب تكون دائمًا أجمل، مرحلة «ما قبل» في الحب هي مرحلة استثنائية، فهي مرحلة ما قبل الكارثة، ما قبل الاعتراف، ما

قبل السقوط، ما قبل التورط، أما مرحلة «ما بعد» في الحب فهي مرحلة عادية، مرحلة وقوع الكارثة، وقوع الانقسام، وقوع التشظي، وقوع الألم والمعاناة. حذرت ليلى صديقتها سارة من التفكير في رجل لا ينتمي لطبقتها الاجتماعية، لا يملك مثلما تملك، رجل بلا أب ولا أم، رجل لا يملك سوى كمانه. ربما ستكون مهمتها معه صعبة، ورحلتها إليه شاقة، ذاك أن الرجل الذي يفقد والدته، يكون في حاجة لمساحات حب أكبر وأعمق وهذا مالم تكن سارة مستعدة لتوفيره.

كلفت سارة صديقتها ليلى بالبحث عن تفاصيل أخرى تخص محمود فخر الدين. ليلى كانت المسئولة عن استقبال المشاركات، أو المقطوعات التي أرسلها المشاركون عبر البريد الإلكتروني إلى مركز سارة للموسيقى، لذلك كان من السهل عليها التواصل معه، والعثور عليه، لكنها في حقيقة الأمر لم تكن تعرف أن من قام بإرسال ملف المشاركة هو أمجد فلسفة وليس محمود فخر الدين. فتحت ليلى حاسوبها اللوحي، بحثت في صندوق الوارد عن الرسائل القديمة، لقد مضت ثلاثة أشهر منذ أن أُرسِلت الرسالة، فتحت ليلى الرسالة القديمة، قرأتها عدة مرات، أخذت عنوان البريد الإلكتروني وأرسلت إليه رسالة طويلة.

من غير المناسب أن تقوم فتاة مثل سارة بمضايقة عازف كمان، فمكانتها الاجتماعية لا تسمح لها بذلك، ورقتها ولطافتها تُغري الآخرين بمضايقتها وليس العكس، لذلك كانت فكرة المندوبة العاطفية فكرة مناسبة في هذه الحالة، وهي فكرة اخترعتها ليلى لتحفظ لصديقتها شيئًا

من الكبرياء. ربما سيكون محمود فخر الدين الرجل غير المناسب، فتهرب منه دون أن تصل إليه، تنأى بنفسها بعيدًا عنه دون أن ترتطم بحصنه المنيع.

عندما استلم محمود فخر الدين الرسالة، وقرأ محتواها، أدرك جيدًا أن هناك فتاة تفكر به، تحلم به ليل نهار. أحس بأنه في طريقه للولوج إلى عالم آخر، إلى عالم ما بعد الكمان. وقتذاك أوقف معزوفته الجديدة التي كان يشتغل عليها منذ مدة، اتكأ على الكرسي، وسرح في تفكير عميق.

الشيء الذي أحزنه بشدة أن الفتاة أحبته لعزفه، عشقت مقطوعة الأميرة سعاد رقم 1176 بدلًا عنه، ما يعني أنها ستتركه إن اعتزل العزف، وهجر الأوتار. سكنته المخاوف، وتردد كثيرًا في الرد على المندوبة العاطفية. في البداية لم يكن يعرف أو لم يتنبّه إلى أن من تراسله هي فتاة أخرى وليست سارة. لكنه أدرك ذلك بعد الرسالة العاشرة، ضحك وقتها وازدادت مخاوفه. قال لنفسه:

-إن كانت تحبني فعلًا لم لا تراسلني هي؟ لماذا توكل أحدًا غيرها للقيام بأدوار تخصها؟ طنت هذه الأسئلة في رأسه، وفي رأس صديقه أمجد فلسفة، وحدها ليلى تعرف الإجابة على هذه الأسئلة، وربما سارة أيضًا.

في ذلك الوقت لم تحدد سارة مشاعرها الحقيقية تجاه محمود فخر الدين، ربما كانت معجبة بعزفه فقط، ربما بقوة شخصيته، ربما فضولها يصور لها أوهامًاكبيرة. لكنها أدركت جيدًا أنها تحبه بحق يوم عودتها من رحلتها القصيرة إلى القاهرة. عادت مُحملة بحقيبة كمان كلاسيكي، اشترته خصيصًا له. وضعت الكمان في إحدى زوايا غرفتها، ألصقت عليه ورقة

صغيرة، كتبت عليها بخط ركيك وروح ملتاعة: تبّا لقد وقعت في الحب.

ليلى كانت تلعب دور الوسيط، ناقل الأخبار بين الطرفين. كانت حلقة وصل مهمة، كانت تستمتع بهذا الدور، كممثلة أحبت دورها في فيلم رومانسي فراحت تتقنه أكثر فأكثر، لكن مالم تدركه فعلًا أن هذا الإتقان سيأتي يومًا، ويتحول إلى عجز ودمار، سيدمر حياة سارة، والدها، وعازف الكمان المسكين.

كان أمجد فلسفة محتارًا من اقتراب فتاة جميلة، ومهمة مثل سارة من رجل مسكين كمحمود فخر الدين، ما يعرفه أمجد فلسفة ويؤمن به حقًا أن الفتيات الغنيات لا يعشقن، ولا يفكرن في الحب أبدًا. قلوبهن قاسية كالحجارة، ما يهمهن هو المال فقط، المال ولا شيء غيره. هذه المخاوف جعلته يقف بشراسة من أجل إفشال مخططهن، مخطط الغنيات الغبيات كما سمّاهن.

أثناء احتسائهما شاي الصباح، سأل محمود فخر الدين صديقه أمجد فلسفة سؤالًا منطقيًا، وضع كوب الشاي على المنضدة الخشبية، وسار خطوتين، أشعل سيجارته وقال:

-ما ذنبها إن كان أبوها وزيرًا؟ وأردف وهو يخرج الدُّخان من رئتيه: أنت تعرف أن الفتاة تحبني وهذا هو المهم.

-الحب وحده لا يكفي.

-في حالتنا، الحب كافٍ لتذويب كل الاختلافات يا أمجد.

-حالتنا؟ أتقصد أنك أحببتها من ورائي؟ صدقني هذه الفتاة لاتحبك،

أعجبها كمانك، أما أنت فلا أظن.

-سنرى.

ما سيكتشفانه في مقبل الأيام، أن سارة أحبت محمود فخر الدين حقًا، وتورطت به، وبكمانه، تعلّقت بكلّ ما تعرفه عنه، وما لا تعرفه، تمسكت بحقها فيه، وجعلت من الوصول إليه هدفها الأسمى في الحياة.

***

{4}

الخرطوم لن تبارك هذه العلاقة أبدًا، ولا حتى ليلى، ولا والد سارة ولا والدتها، ولا أيّ مخلوق في هذا الكون البائس. يفترض بطرفي العلاقة أن يكونا متقاربين، فكريًا، أخلاقيًا، ماديًا. كان أمجد فلسفة يحاصر محمود فخر الدين بهذه الجمل، ويزجّه في زاوية ضيقة، لكنه كان يهرب دائمًا إلى اليابسة، ويرسو على برِّ الأمان. كان يعرف كيفية الرد على هذه الجُمل بطريقة بسيطة، يأخذ كمانه الذي يضعه دائمًا بالقرب من صورة والدته، يضعه على كتفه، يحرك الأوتار، يضبطها، يطلق نغماته الحزينة، ويسكت بها أمجد فلسفة إلى الأبد.

ما لم يستطع أمجد فلسفة مقاومته والتنظير حوله، هو ضعفه المؤكد أمام أوتار الكمان، والموسيقى المجنونة التي تتدفق منه، وخسارة فرصه بصورة متكررة في إقناع محمود فخر الدين بما يرغب، أو فيما يعتقد، رغم أنه كان من أكثر المنظرين في الحيّ. لديه ألف نظرية مختلفة، نظرية في الطبخ، وأخرى في الاستحمام، نظرية في التأمل، وأخرى عن الحب، نظرية في الحياة، وأخرى في الموت. كان معجبًا بالفيلسوف ديفيد هيوم، وفلسفة العقل، وكان يحاول إجراء تجارب عن (الهوية الشخصية) مع محمود فخر

الدين نفسه، ويسأله دائمًا متى ستصبح أنت أنا؟ ومتى أصبح أنا أنت؟ لذلك أطلق عليه لقب أمجد فلسفة.

تطورت العلاقة، وصار من الضروري الآن تحديد موعد للقاء، تضاءلت أهمية المندوبة العاطفية ليلى، لأن سارة أصبحت تتصل بمحمود فخر الدين مباشرة، دون وسيط، بعد تأكدها من مشاعره الإيجابية نحوها. كانا يقضيان ساعات طويلة على الهاتف، يكتشفان بعضهما البعض، ويحلان ألغازهما المشتركة. كان محمود فخر الدين حريصًا في انتقاء كلماته، يعرف لماذا قال نعم بدلا من أن يقول أجل، وكان يحرص على استخدام كلمات جامدة لا تحسب عليه، مثل: جميل، رائع، ممتاز، حسنًا، لا بأس. لأن الرجال الذين يستخدمون هذه الكلمات في محادثاتهم هم الأكثر قدرة على تسيير علاقاتهم العاطفية وفقًا على ما يريدون، هذا ما سمعه من أمجد فلسفة ذات يوم. لذلك كان محمود فخر الدين يكثر من هذه الكلمات وغيرها.

التفاصيل الدَّقيقة التي عرفتها سارة عن محمود فخر الدين بواسطة ليلى كانت كافية لاتخاذ قرار نهائي بشأنه، وهذا ما فعلته، الحب ولا شيء غير الحب. عرفت أن والدته متوفية منذ ثلاث سنوات، وأن والده تركه بلا إحساس بتأنيب الضمير ليرتمي في أحضان فتاة تصغره بثلاثين سنة. عرفت أيضًا أن المنزل الذي يسكن فيه ملكه، عرفت عدد الغرف، شكلها، أثاثها، طريقة تصميمها، وكل شاردة وواردة عن حياته. لكن ما لم تعرفه وربما لن تعرفه أو لن تفهمه أبدًا هو حبه العميق لأمه.

أما هو ورغم المعلومات التي يعرفها عنها ظل يسألها بملالة، ليختبر مصداقيتها، وشفافيتها وهذا فعلته هي أيضًا. تجاهلت إخباره بحقيقة والدها، لم تخبره بأنها ابنة الوزير، ابنته الوحيدة، ومدللته الجميلة، لم تخبره بأنها ولدت خارج البلاد عندما كان والدها يعمل سفيرًا للسودان بإحدى الدول العربية، ربما هذه الأحداث لا تهمه، ولن تؤثر في علاقتهما. لكنها أخبرته بأنها تحبه، بكل ما تملك من قوة، وهي مستعدة لرمي نفسها من برج أيفل أو ربما من برج بيتزا المائل لتثبت له حبها، وإخلاصها. هو يعرف أنه يحب سارة ابنة الوزير، التي لولا كيانه لما حلم بمقابلتها.

كان لديه موقف واضح تجاه النظام الحاكم، الذي ينتمي إليه والدها. هو لم يكن (كوزًا) ولم يكن معارضًا وهميًا، ولا متمردًا، لم يكن شعبيًا، ولا شيوعيًا، ولا اتحاديًا، ولا ينتمي لأيّ من تلك البيوت الحزبية المتهالكة، كان يؤمن أن الحكومة قسّمت الأرض، وباعت الوطن، وفرّقت الناس، وكان يحاول إسقاطها عبر موسيقاه، وعن طريق ألحانه، ومقطوعاته.

كان يراها قطة صغيرة، ستكبر يومًا وتشرب حليبًا ليس لها، وتأكل لحم وخبز الآخرين كوالدها، رغم أنها ألمحت إليه في إحدى مكالماتهما الهاتفية أنها لم تُخيَّر بشأن أصلها وفصلها، ولم يتم إخبارها من قبل بأنها ستصبح ابنة وزير فاسد. لكنه كان يرى عكس ذلك، فوفقا لما سمعه من أمجد فلسفة، أن الأفيال عديمة الأنياب والتي ظهرت في سهوب أفريقيا، اختارت أن تكون بلا أنياب لتعيش، لأن الصيادون كانوا يقتلونها من أجل العاج. الفيل بلا ناب هو فيل بلا عاج، وبالتالي يتركه الصيادون.

لذلك اختارت الأجيال التالية من الأفيال أن تولد بلا أنياب. هذا يعني أن افتراضه صحيحًا، سارة اختارت أن تولد في بيت الوزير، لتنعم برغد العيش، وسهولة الوصول إلى ما تريد.

البيت الذي تقيم فيه سارة هو ملكها أيضًا، والدها لديه عدد لا يحصى من البيوت والعمارات والمصانع. أعطاها منزلًا جميلًا مبنيٍّ على طراز معماري فريد، به ثلاثة طوابق، وخمسة عشر شقة، المارة في الطريق كانوا يشيرون بأصابعهم إلى شُرف المنزل المطلة على الشارع العام، ويقولون في أنفسهم إن هذا المنزل لا يسكنه إنسان عادي، لا تعيش فيه فتاة عادية، كان واضحًا من شكله المعماري أنه به أسرة مهمة، تسكن أرجاءه وتستنشق هواءه، وتنام على سرائره ذات الشراشف والمخدّات الوثيرة.

مالم يتوقعه محمود فخر الدين أن أول لقاء له مع سارة سيكون في هذا المنزل. بدت الفكرة غريبة في نظره، كيف لفتاة أن تدعو شابًا لا تعرفه جيّدًا إلى منزلها؟ كيف لها أن تجرؤ على التفكير في دعوة كهذه؟ تدّخل أمجد فلسفة لإقناع صديقه بالذهاب، رغم أنه عارض الفكرة في الأول. ووعده بمرافقته إلى أي مكان. قائلًا له:

-لا يهم إلى أين ستذهب، إلى بيت الرئيس، إلى بيت الوزير، إلى بيت ميشيل فوكو، المهم أن تُلبّي الدعوة.

كان محمود فخر الدين لا يزال مترددًا ولم ترسُ سفينة حيرته على اليابسة بعد. الذهاب إلى بيوت الناس المهمِّين يتطلب إعدادًا نفسيًا، وذهنيًا، وماديًا، يتطلب أيضًا رسم خطة للهروب في حال وقوع أيّ

طارئ. لذلك وضع محمود فخر الدين خطّته للهروب، والتي تضمنت القفزَ من الشُّرفة والجري، أو الاختباء تحت الأريكة، أوالدخول إلى الحمام إلى أن يزول الخطر، وضع خُطته في جيب سترته وانطلق إلى سارة بعد أيام من التفكير.

في الجانب الآخر، كان المنزل جاهزًا لاستقباله، هو ضيف مهم عندها، لذلك اهتمت بأدق التفاصيل. نظمت الصالون بمساعدة من صديقتها ليلى، وضعت الشموع في الزوايا، كانت لهيب الشموع يتراقص على أنغام معزوفات كمان خالدة. ثم علقت لوحات تشكيلية على الجدار، الأرائك كانت موضوعة بصورة منظمة، طاولة العشاء جاهزة، الكمان الكلاسيكي جاهز أيضًا لتقدمه له بعد انتهاء العشاء. الإضاءة خافتة، والجو يعبق برائحة الياسمين. لم يكن هناك مجالًالخطئ ما غير محتمل من شأنه أن يفسد قدسية اللقاء، والأجمل من ذلك أن سارة اهتمت باحتمالية سقوط الأكواب الزجاجية على الأرضية، وتهشّمها، لذلك باعدت بين الكراسي، والمناضد الزجاجية، بطريقة لا تسمح بسقوط كوب، أو ملعقة.

رغم أن سارة عرضت عليه فكرة إرسال سائقها وحارسها الخاص، عمر كومبو لأخذه من باب منزله بالسيارة، لكنه رفض فكرتها بشيء من الكبرياء، وهذا ما زاد تعلقها به. أخبرها بأنه سيصل إليها دون سائق، ربما دون سيارة، المهم هو سيصل في الوقت المحدد.

رنّ جرس المنزل الذي يشير عليه المارة بأصابعهم. وصل محمود فخر الدين قبل خمسة دقائق من موعده المحدد، فتحت سارة الباب بحماس،

دلف إلى فناء الصالون المنظم، والمرتب، والذي استغرق تنظيمه وترتيبه بهذه الطريقة يومين كاملين. أول شيء لفت انتباهه هو الكمان الموضوع على الزاوية، وتلك العبارة الملصقة عليه: «تبا لقد وقعت في الحب». ابتسم في نفسه مهنئًا إياها بهذا الإنجاز العظيم. في الحقيقة كان الإيقاع بفتاة مثل سارة في شباكه يعد إنجازًا عظيمًا لرجل عادي مثله، وربما سيكون إنجازًا عظيمًا لأيّ رجل عادي أن يوقع فتاة استثنائية في غرامه. وبما أنه من نوعية الرجال الذين لا ينبهرون بشيء دخل إلى منزلها بثقة، وحذر، ومجموعة أحاسيس أخرى عدا الانبهار.

كانت سارة في أبهى حُلّتها ذاك المساء، بدت كما لو أنها نجمة من نجوم السينما، عيناها واسعتان، وشعرها الأسود الجميل، والناعم مسترسل على كتفيها، كانت ترتدي فستانًا جميلًا، وتنتعل حذاءً فخمًا، يلمع ويبرق مع كل خطوة تمشيها، نهداها منتصبان، مغريان، عنيفان، مشبعان بالمتعة والحرمان، بينهما يتدلى عقد ماسي فريد. دعته إلى الجلوس بحركة رشيقة، والابتسامة تزين ثغرها المغري، والفتّان. بادلها الابتسامة، ثم تحسس جيب سترته وأطمئن على وجود خطته التي وضعها للهروب.

لماذا يفكرفي الهروب يا ترى؟ هو ذاهب للحب، ذاهب للقاء سارة، التي تحبه بصدق، اختارته من بين ملايين الناس، الذين تعرفهم لتمنحه قلبها، لتتركه يستحوذ على المساحة الخالية في حياتها، والتي تركتها فارغة لسنوات طويلة، يجدر به الآن أن يفكر في الاقتراب منها أكثر، في استغلال وجوده معها، لوحديهما، لكنه كان يتحسس جيب سترته بعد كل شربة

ماء يشربها، بعد كل قضمة طعام يأخذها، لأنه كان يعتقد أن أفضل طريقة للاقتراب منها هي وضع خطة للهروب.

جلسا على طاولة الطعام الزجاجية، الإضاءة خافتة، وألحان الكمان العذبة تتدفق بطريقة مجنونة، الشموع كانت تتراقص على هذه الأنغام. اختارت سارة مقطوعة كمان رومانسية، تحمل اسم (Night flight) لعازفة الكمان العالمية (Kate Chruscicka) كانت كريمة معه ولطيفة لدرجة لا يمكن تخيلها، عاملته برقة وبكرم، حيث كانت تسكب له الماء في وقت الأجدر به أن يفعل ذلك، وتُقرّب منه الأطباق، وتحدثه بهمس، أما هو فكان مشغولًا بخطته، كيف يهرب ومتى؟

رن جرس المنزل، هي لم تكن تتوقع ضيفًا، لذلك ارتسمت علامات الانزعاج على وجهها، عقدت حاجبيها، زمت شفتيها دهشة، سحبت الكرسي للخلف واتجهت صوب الباب. وقتذاك سار محمود فخر الدين إلى الحمام، يسكنه الرعب، والارتباك، علِق ذيل سترته بطرف الطاولة الزجاجية فسقطت ورقته التي كان يخبّئها على الأرضية، لم يرها، أسرع في الدخول إلى الحمام والاختباء فيه، وعندما عاد بعد عشر دقائق من الاختباء، وجد ورقته بين أناملها، شعر بالهزيمة، أما هي فسألته بمزاح:

-لماذا لم تقفز من النافذة؟

سكت ولم يرد. أخذ ورقته من بين فتحات أصابعها وأرجعها إلى مكانها. كان يبحث بعينيه الذكيتين في أرجاء المنزل، علّه يعثر على من جاء، على من جعله يذهب إلى الحمام خوفًا. لاحظت سارة شرود عينيه،

لذلك أخبرته بأن الزائر غير المتوقع كان عمر كومبو، جاء بإذن من والدها ليطمئن عليها، ويكتب تقريره اليومي عمّا يجري هنا. هي لم تسمح له بالدخول، رغم أنه كان يشرئب برقبته خلف الباب ليرى إن كان هناك أحد ما بالداخل عداها. لم تسمح له برؤية شيء، أمرته بالذهاب ففعل.

عندها أخذ محمود فخر الدين نفسًا عميقًا، شعر بالارتياح، وشعر أيضًا بضرورة الخروج من حالة الهروب التي يعيشها، هو الآن في بيت ابنة الوزير، التي تحبه بجنون، فضّلته على غيره، واصطفته من بين مختلف أصناف الرجال الذين قابلتهم في حياتها، لماذا عليه أن يخاف؟ لماذا عليه أن يشعر برغبة عارمة في الهروب؟ وضع كأس الماء على فمه، وقبل أن يسحب منه جرعة صغيرة أعاد الكأس إلى الطاولة مجددًا، نظر إليها نظرة عاشق ولهان، وحدثها بصورة جدية عن نفسه.

من هو؟ ولماذا أصبح عازف كمان في الوقت الذي كان بإمكانه أن يصبح رسامًا، روائيًا، باحثًا، أو أي شيء آخر، حدثته عن نفسها، عن والدها، ووالدتها، صديقتها ليلى، ومركز سارة للموسيقى، أخبرته بأن اسم المركز لا علاقة له باسمها، وإنما باسم سارة منصور، وهي كاتبة سودانية مقيمة بالولايات المتحدة الأمريكية، أُعجبت بها، وبكتابها بنات الخرطوم، الذي كشفت فيه عهر المجتمع السوداني، ونزعت عنه عباءة الحشمة التي يرتديها. لو كان والدها يعلم سر هذه التسمية، لأغلق المركز بقرار من مكتبه، لكنه لا يعلم شيئًا، ولا يفقه شيئًا، ما يعرفه هو أن ابنته تدير مركزًا للموسيقى يحمل اسمها، وهذا كل شيء.

تأخر الوقت كثيرًا، لم يشعرا بتأخره، لأن الوقت توقف عندهما، توقف ليستمتع بهما، ليسمع حديثهما. كانا يشعران بتأخّرهما في التعرف على بعضهما أكثر من تأخر الوقت. نظر محمود فخر الدين إلى ساعته، التي تزين يده اليسرى، يريد إخبارهما بتأخر الوقت، لكنها تجاهلت إيماءاته، رغبة منها في كسب المزيد من الوقت في التحدث معه، والاستمتاع به. رنّ هاتفه أكثر من مرة، لم يرد عليه، ولا على رسائل أمجد فلسفة الذي كان يتابع اللقاء عبر الرسائل النصية. كان محمود فخر الدين كريمًا جدًا، يريد أن ينفق كل زاده من الحب في هذا اليوم، يفرغ كل ما في جعبته من شوق، وهيام، ثم يعود إلى بيته مبتسمًا، خاليًا من كل شيء، ومثقلًا بالفراغ.

رنّ جرس الباب مجددًا، قَلِق محمود فخر الدين حيال هذا الرنين المتواصل، قامت سارة من الكرسي الخشبي، بحركة عفوية سحب محمود فخر الدين الكرسي إلى الوراء، بدت سارة منزعجة هذه المرة، وكست وجنتيها مسحة تذمر لامعة، تحركت صوب الباب مجددًا، في تلك الأثناء توقف محمود فخر الدين بالقرب من الزاوية التي يستريح فيها الكمان الكلاسيكي، داعبه بيده، رفعه من المنضدة، ووضعه على كتفه. عادت سارة مُسرعة فوجدته يعانق كمانها الذي هو كمانه، ابتسمت، وقالت له بصوتها الأنثوي الناعم:

-بالمناسبة هذا الكمان لك، جلبته من القاهرة خصيصًا لك.

-يبدو أنني محظوظ جدًا.

-لا. بل الكمان محظوظ، لأنك ستعزف عليه.

ابتسم محمود فخر الدين بثقة، شكرها على هديتها، ثم حمل حقيبة الكمان، علّقها على كتفه الأيمن وسار إلى الباب. لحقته مودعة إياه، وقلبها يرفرف من الفرحة، والنشوة، مدت إليه ورقته تلك، وقالت له بمزاح أكثر من ذي قبل:

-في المرة القادمة، لا تفكر في وضع خطط للهروب، الأجدر بك أن تضع خطة للبقاء.

هز رأسه إيجابًا. فتح الباب المفضي إلى الخارج. عند الباب التقى بعمر كومبو الحارس الشخص لسارة. ألقى عليه تحية باردة، ومضى.

***

{5}

تقابل محمود فخر الدين مع عمر كومبو لأول مرّة في منزل سارة. كان لقاءهما باردًا، ومشحونًا بالضغينة، والعداوة، لقاء الحبيب بالحارس الشخصي، وكاتب التقارير. كان محمود فخر الدين يظن أن عمر كومبو هو حبيب سارة السري، الرجل الذي ظل واقفًا خلف الباب لثمانية ساعات، يرِنُّ الجرس تارة، ويضرب الباب تارة أخرى. لكن سارة أخبرته فور عودته إلى منزله، برسالة نصية أن من التقاه لدى الباب هو شرطي مسكين يُدعى عمر كومبو يعمل لحساب والدها، ولخدمة الأسرة وحراستها وكتابة التقارير اليومية، ومراقبة العمارة التي تملكها سارة، والتي تستعملها لاجتماعات المركز، أو لأغراض أخرى من ضمنها لقاء حبيبها الجديد عازف الكمان محمود فخر الدين.

في ذلك اليوم كتب عمر كومبو تقريره اليومي العادي، والذي يُرسله إلى مكتب الوزير يوميًا، كتب عن الرجل الذي جاء عند السابعة مساءً خالي اليدين، ورجع عند الثالثة صباحًا بحقيبة كمان. كتب عنه كما يكتب ويسرد الروائيين في رواياتهم، وصف سترته، بشرته السمراء، عيناه الذكيتين، ابتسامته الباردة، ووجهه الهادئ، حتى طريقته في المشي،

والحذاء الذي ينتعله، ولأن عمر كومبو عمل كمتحرٍّ سابق في قسم (سوق ليبيا) كان سهلًا عليه أن يقوم بكتابة التقارير، وصياغتها، بطريقة تلفت الانتباه، وتجذب القارئ، وهذا ما جعل الوزير المبجل، يختاره من ضمن ألف متحرٍّ للعمل عنده.

ذات يوم طلب الوزير المبجل من مدراء الأقسام بشرطة ولاية الخرطوم، توفير أفضل المتحرّين للعمل عنده تحت مسمى (خدمة خاصة)، وقد وقع الاختيار على عمر كومبو دون غيره، كان عمر كومبو يعمل بقسم سوق ليبيا والذي يقع في غرب مدينة أم درمان. عُرف بين زملائه في القسم بقدرته الفائقة على وصف اللصوص والمجرمين لأفراد المباحث ليتم القبض عليهم، ولما طُلِب من كل المتقدمين للخدمة الخاصة، كتابة تقرير عن القسم الذي يعملون به، عدد السجناء، الموظفين، الضُّباط، الجنود، وأفراد المباحث، ووصف الزنزانات، والمراحيض، وكل صغيرة وكبيرة بالقسم، كان من السهل على عمر كومبو الحصول على امتيازات الخدمة الخاصة، والتي ستمنحه قدرًا من المال يُضاف إلى راتبه الشهري، بالإضافة إلى بقايا فاكهة وطعام وشراب، وربما هدايا غير متوقعة من ابنة الوزير، وزوجته.

منذ أن تم اختياره للعمل، كتب عمر كومبو مائة تقرير، وكان التقرير الذي كتبه عن محمود فخر الدين هو التقرير رقم مائة. كان يكتب تقاريره بطريقة سردية ممتعة، وسهلة، جعلت الوزير الذي لا يقرأ أبدًا يعشق القراءة، وينتظر بشغف التقرير التالي. جاء التقرير الخاص بمحمود فخر

الدين مبكرًا كالتقرير الخاص ببائع الخضروات إبراهيم، كان الوزير وقتهاقد وصل للتو إلى مكتبه المؤقت بشارع النيل، دلف إلى المكتب، نزع سترته، وربطة العنق، قلع جزمته، وارتدى (سفنجة) زرقاء، ارتشف قهوته التي جاءته بها امرأة أربعينية، ظلت تعمل لعشر سنوات في الوزارة، قبل أن يُقلّب الوزير الصحف الصباحية كعادته اليومية، وقعت عيناه على التقرير الخاص بمحمود فخر الدين.

كان واضحًا تمامًا أن هنالك رجل آخر غيره يحاول أخذ ابنته منه، لأن كلمات عمر كومبو الذي استطاع الجزم بأن محمود فخر الدين هو حبيب سارة كانت واضحة وتؤكد هذا الافتراض. وقف الوزير المبجل على قدميه، انتصب كنصب تذكاري قديم، أطاح بالتقرير بعيدًا وخرج من المكتب.

***

{6}

بدا الوزير منزعجًا جدًا، استشاط غضبًا ولمعت عيناه الشريرتان. هو لا يعرف من هو محمود فخر الدين؟ أين يقيم؟ ماذا يأكل ويشرب؟ هل لديه فيلا؟ أم لا يملك سوى خشبة جامدة يعزف عليها؟ ورغم أن عمر كومبو اجتهد في رسم ملامح محمود فخر الدين بالكلمات، إلا أن الوزير لم يستطع أن يضع صورة كاملة لهذا العازف المسكين الذي يحب ابنته. دائمًا ما يكون هناك شيء ناقص. رجل كمحمود فخر الدين يصعُب وضع صورة كاملة له، رجل مثله لا يمكن تخيُّله، أو رسم فكرة له في الذِّهن، هو لا يُرسم، ولا يخطر على بال من لم يسمع عنه، ومن لم يستمع إلى عزفه بعد.

بعد أيام قليلة، من قراءته للتقرير الخاص بمحمود فخر الدين، سافر الوزير إلى خارج السودان لقضاء عطلته الصيفية، مُحمّلًا بملايين الدولارات. كان الجوع وقتها ينخر أجساد المشردين في أزقة السوق العربي، أجسادهم مكشوفة، لا حيلة لهم، لا مأوى ولا طعام. أخذ الوزير ملايين الدولارات من أموال الوزارة من أجل قضاء عطلته بطريقة مثالية، ممتعة، وبذخية، كاشفًا بما أخذ عورات الفقراء، وسارقًا مال

الشعب المسكين المغلوب على أمره. الغريب في الأمر أن سارة تخلّفت عن السفرلسبب لم تعرفه الأسرة بعد.

فيما مضى كانت سارة أكثر حماسًا لقضاء العطلة الصيفية خارج السودان، كانت هي العقل المدبر لقضاء العطلة في ماليزيا، جزر المالديف، أو سنغافورة. وكانت تقترح على والداها الوجهات السياحية الرائعة والفنادق الفاخرة، لكنها اليوم أخبرت والدتها بنيتها البقاء في البيت. لم تسألها والدتها عن السبب، ولم تشأ الوالدة زج نفسها في حوار قصير ستخسره بكل تأكيد، ليس لأنها غير ماهرة في الاقناع، ولكن لأن سارة هي ابنتها الوحيدة. وغالبًا لا يرفض الأبوين طلبًا لابنتهما الوحيدة.

-سارة تخلفت عن السفر لأن مركزها سيشهد أمسية ثقافية موسيقية بعد يومين.

هذا ما قالته والدتها لوالدها ردًا على سؤاله عنها، وعن جاهزيتها للسفر. لكن السبب الحقيقي وراء تخلفها عن السفر، هو محمود فخر الدين. هو الذي منعها عن السفر ساخرًا منها على الهاتف:

-إن كانت ابنة الوزير تحبني بصدق ستبقى قربي. في ذلك الوقت أجابت سارة بامتعاض على لقب ابنة الوزير:

-ابنة الوزير؟

-نعم

-وأنت ابن من؟

-أنا ابن الكمان. ابتسمت سارة وقالت:

-يا ابن الكمان، أنا لن أسافر، سأبقى قرب أوتارك إلى الأبد.

كانت والدة سارة خائفة من ترك ابنتها لوحدها في المنزل، وراحت تتصل بها بين الفينة والأخرى، أين أنت يا سارة؟ ماذا تفعلين؟ هل تناولت عشاءك؟ هل سقيت أصص الأزهار؟ كانت سارة تجيب على كل هذه الأسئلة وغيرها بنعم، تنهي المكالمة وتتصل بحبيبها محمود فخر الدين. كانت والدتها مقتنعة تمامًا أن ترك فتاة جميلة، ورائعة مثل ابنتها في بيت كبير، بلا رقيب أو حسيب، أشبه بغرس زهرة ياسمين جميلة في أرض لا تنمو فيها سوى زهور الصبار.

سارة لا تخاف من تلك الأشياء التي تخاف منها الفتيات عادة، الظلام لا يخيفها، الحشرات الصغيرة لا تفزعها، الوحدة، الغرباء، اللصوص، كل هذه الأشياء لا تخيفها، ما يخيفها حقًا ويجعل قلبها ينبض بسرعة من هول الذعر هو غياب محمود فخر الدين، غياب عزفه الذي تعودت عليه، بل وعشقته من خلال سماعة الهاتف.

خلال الفترة القصيرة التي عاشاها، ويعيشانها الآن عزف محمود فخر الدين لحبيبته سارة أغلب المقطوعات الموسيقية التي ألّفها من أجل والدته، الأميرة سعاد. كان يعزف لها يوميًا، تلك المقطوعات الحزينة، فتبكي تارة، وتحزن تارة أخرى. رغم إنها توسلت إليه أكثر من مرّة أن يعزف لها، معزوفة الأميرة سعاد رقم 1176، والتي عزفها في المسابقة، والتي كانت سببًا في وقوعها في غرامه إلا أنه رفض بشدة، وبطريقة لا تقبل النقاش والحوار، قائلًا بلهجة غريبة: لن أعزفها، لن أعزفها، بدون

أيّ مبررات.

ستعود أسرة سارة عما قريب، والدها أيمن، ووالدتها سناء، هما ولا أحد غيرهما. سارة وحيدة والديها، سناء لم تنجب غيرها، لكنها أجهضت طفلة قبل أن تلد سارة بخمسة سنوات. جاءت سارة في الوقت الذي توقّع فيه المقربون من الأسرة انتهاء حلم أيمن وسناء بالإنجاب. سمّاها والدها سارة لأنها جاءت بالسرور إلى الأسرة، جاءت بالأمل الذي غاب واندثر، جاءت بالنور الذي انتظره الزوجان بعد سنوات من العتمة. لذلك كان والدها يسخِّر كل طاقته لخدمتها، لرؤيتها سعيدة، وكان مستعد لفعل أي شيء من أجلها، من أجل الحفاظ عليها سليمة، ومعافاة، طاهرة، ونقية، لدرجة أنه قال لها ذات يوم وهي طفلة صغيرة تلعب بالدُّمى: أنا مستعد أن أقتل أيّ رجل يقترب منك.

بعد انكشاف بعض الأمور، وظهورها بوضوح تام عارض الوزير تسمية مركز الموسيقى، الموسوم مركز سارة للموسيقى نسبة لإحدى المناضلات السودانيات، وهدد بإغلاقه وتحويله إلى مخزن للبضائع، لكنه تراجع عن قراره في اللحظة الأخيرة حينما رأى دمعتين حارقتين تسيلان على خدي ابنته، وعندما رفضت سارة السفر، وهي التي كانت ترافقهما إلى أي مكان يسافران إليه، ولا تحلو العطلة بدونها، لم يرغب في الوقوف أمام رغبتها، وحرمانها من أبسط الحقوق.

رغم التقرير الذي قرأه عن محمود فخر الدين والخطر الذي يشكله، سافر الوزير إلى سنغافورة، وترك ابنته لرجل لا يعرف عنه أي شيء.

حاول الوزير إيجاد علاقة منطقية بين التقرير الذي قرأه، وبين إصرار ابنته البقاء في الخرطوم، لكنه لم يجد علاقة من أي نوع. كانت محاولته تلك أشبه بإيجاد علاقة بين شيئين لا علاقة بينهما.

تجرأت سارة مرة ثانية على دعوة محمود فخرالدين إلى المنزل. هذه المرة دعته إلى منزل الأسرة الكبير، مستغلة سفر والديها. في ظروف كهذه لن يستطيع أحد الاقتراب منهما، وإفساد ليلتهما، حتى عمر كومبو نفسه سيكون موجودًا لكن على بعد مائة متر على الأقل.

قبل الوصول إلى بوابة المنزل الذي يشبه القصر، توجد مساحة ممتدة، خضراء وجميلة، تمرح فيها الأرانب النشطة، وتسكنها السلاحف الكسولة، العصافير تغرد بحماس، حماس أشبه بحماس سارة. كأن العصافيركانت تنتظر وصول محمود فخر الدين هي الأخرى، لذلك عندما دلف عازف الكمان المسكين عبر البوابة الرئيسية للمنزل ارتفع تغريدها عاليًا، وظهرت سارة من خلف النافذة الزجاجية كعصفورة جميلة حطّت على طرف غصن مائل. سلمت عليه بحماس وقالت له:

-شكرًا لأنك لبيت الدعوة.

أخذت سارة خطوتين للأمام، على الطريق الضيقة المحفوفة بالعشب الأخضر. أما هو فكان يراقب السلحفاة الكبيرة الملقاة على ظهرها، وتركل الهواء بأطرافها. عادت إليه مبتسمة، أخبرته وهي تهز رأسها بسخرية أن هذه السلحفاة تدعى ليلى نسبة لصديقتها، وهي سلحفاة كسولة، تفضل الاستلقاء على ظهرها، والاستمتاع بركل الهواء. ثم

أردفت بدلال لم يرَ محمود فخر الدين مثله من قبل، وربما لن يرى مثله أبدًا:

-دعك من السلاحف الآن، لندخل إلى البيت. وأخذت خطوة صغيرة نحو البوابة الرئيسية للمنزل.

هذه المرّة لم يفكر محمود فخر الدين في وضع خطة للهروب، على عكس المرة السابقة عندما زارها في منزلها الخاص وسط الخرطوم. بدأ يشعر معها بالاطمئنان شيئًا فشيئًا، يومًا بعد يوم، بدأ يشعر بالراحة والسكينة معها، رغم الغدر الذي يلوح من حين لآخر خارج جدران البيت.

عمر كومبو كان يراقبهما، رغم أن سارة طلبت منه قبل مجيء محمود فخر الدين بساعتين أن يذهب ويهتم بأمره. لكنه اختبأ داخل الحديقة بأمر من والدها، وراح يراقب ما يحدث، يأخذ صورة بكاميرته، ويكتب على دفتره الصغير ما يراه لحظة بلحظة، وحدثٍ بحدث. سارة شعرت بوجوده عندما كانت تتحدث مع محمود فخر الدين عن السلحفاة الكسولة، شعرتْ بحركة لم تعهدها في الحديقة بالقرب من أشجار الموز الكاذب. حركة أشبه بحركة أفعى شرسة هاربة، لكنها طمئنت نفسها وتمنت أن تكون هذه الحركة أحدثتها أفعى بدل أن يحدثها كاتب تقارير لعين.

دلف محمود فخر الدين إلى بيت الوزير، رغم الحراسة المشددة على البيت من كل الاتجاهات، دخل إلى المنزل دون أن يراه أحد، ودون أن تلتقطه الكاميرات، عدا كاميرا عمر كومبو. جلس على الأريكة الفاخرة الموضوعة في الصالون وسرح بخياله بعيدًا. كان يتأمل النجفة الكبيرة

المعلقة على السقف بسلاسل فضية اللون، ويعد الأنوار الذهبية الصغيرة التي كانت تلمع وتبرق بطريقة رائعة، والنجفة تتأرجح ببطء شديد. في تلك اللحظة بالذات شعر محمود فخر الدين بثقة لا مثيل، ثقة جاءته من حيث لا يدري. قام من مكانه، وجاب أنحاء الصالون متأملًا اللوحات المعلّقة على الجدران، والمنحوتات الأثرية الموضوعة داخل صندوق زجاجي. ابتسم بأسى لما رأى المنحوتة الأثرية المسروقة من المتحف القومي، رآها بأم عينه تناديه من خلف ألواح الزجاج، وكان قد قرأ خبرًا عن اختفاء المنحوتات الأثرية قبل يومين، لذلك عندما عادت سارة سألها بسرعة:

-لمن هذه المنحوتة؟

سكتت لبرهة، هي تحبه ولا تريد أن تكذب عليه، ولا تريد أيضًا أن تصف والدها باللص، أجابت وهي تطلب منه أن يبدي رأيه في ملابسها:

-دعك من المنحوتات الآن، ما رأيك بطلّتي الجديدة؟ أجابها بكلمات مُنتقاة، تعني أنه يعرف كل شيء، يعرف من يملك هذه القطع الأثرية الثمينة. قال لها وابتسامة الأسى تخنق شفتاه:

-تشبهين منحوتة أثرية ثمينة، سُرقت من المتحف القومي.

-ولماذا سُرقت؟

-لا أعرف.

فضّل محمود فخرالدين عدم إقحام الفتاة في مشاكل وطنية ليست ضلعًا فيها، لذلك حاول تغيير مسار الحديث، متسائلًا عن عمر كومبو:

-أين ذاك الرجل الذي يتبعُك كظلك؟ ضحكت بصوت عالٍ، وردت عليه:

-حتى ظلك يتخلى عنك في الظلام. ثم فاجأته بسؤال:

-أين كمانك؟ وأردفت قبل أن يُجيب على سؤالها:

-يفترض بعازف كمان مثلك أن يحمل كمانه إلى أي مكان. هنا تدخل مجيبًا على سؤالها:

-لقد نسيت الكمان في المنزل، رغم أني قررت أن آتي به إلى هنا. سكت لبرهة ثم أكمل. . يقولون إن المرأة التي تُنسي العازف كمانه، قد تكون سببًا في شقائه. وسألها:

-ما رأيك في هذه المقولة؟ أجابته وهي تسحبه من يده للدخول إلى غرفتها:

-شقاء. . أيّ شقاء. . أنا مستعدة أن أكون لك كمانًا تعزف عليه، بدل أن أكون سببًا في شقائك.

***

{7}

دخلا إلى غرفتها، كانت تريده أن يكتشف كيف تعيش حياتها الخاصة، تريد أن تُعرِّفه على دُماها القديمة، وسريرها الكبير الذي يسع لثلاثة أشخاص، وكثرة الوسائد الوردية المبعثرة عليه، الأباجورة الذهبية، مكتبة صغيرة للكتب، وجيتار كلاسيكي. اقترب محمود فخر الدين من مكتبتها يريد معرفة نوعية الكتب التي تقرأها، قبل أن يسحب كتابًا من الرّف، تساءل بينه وبين نفسه عمّا تقرأه هذا الفتاة؟ هل تقرأ كتب الفلسفة؟ أم هي مغرمة بكتب الفن والجمال؟ هل تعشق الروايات؟ هل تحب كتابات غادة السمان، ومي زيادة؟ أم تقرأ لأحلام مستغانمي؟ هل تقرأ الأدب النسوي؟

لم تكن هناك إجابة واضحة، فأضطر لحشر يده بين الكتب. أخرج كتابًا بصورة عشوائية، كان الكتاب لروائية سعودية تدعى: أثير عبدالله النشمي، قرأ عنوان الكتاب في سره: فلتغفري. ابتسم، وعلى الرغم من أنه لم يقرأ الرواية، كان له رأي واضح حيالها. قال وهو يُقلّب الصفحات:

-اعتقد أن الكتابة عن قصص الحب سهلة. أجابته بتحد:

-اعتقد أن عزف مقطوعات عن الحب، أسهل بكثير من كتابة رواية.

ابتسم، وقال مدافعًا عن العازفين:

-هذا شيء وذاك شيءٌ آخر.

كانت سارة قريبة منه حد الالتصاق لدرجة أنه كان يسمع صوت أنفاسها يعلو ويهبط، يرافقه ارتفاع وانخفاض لنهديها المغريين. لم يفكر محمود فخر الدين في الاقتراب أكثر، كان رجلٌ قويًا، قادرًا على قيادة مشاعره إلى برِّ الأمان. رجل يعرف ما يريد، ومالا يريد وقتما يريد. وفي هذه اللحظة بالذات هو لا يفكر في لمسها، أو تقبيلها، أو التورُّط في أي ملامسات جسدية من شأنها أن تعصف بعلاقتهما التي بدأت لتوّها. هو كان يؤمن بكلمات أمجد فلسفة الذي قال له ذات مساء: متى ما حضر الجسد في علاقة الحب حُكم عليها بالفناء.

طنّت هذه الكلمات في رأسه، وأخذته من داخل الغرفة إلى أماكن أخرى بعيدة. من الصعب على أي رجل في العالم تفويت مثل هذه الفرصة، خاصة في ظروف كهذه. غرفة جميلة ومرتّبة، سرير كبير، وفتاة! كانت سارة فرصة صيد سهلة، كغزالة بساق مكسورة. كانت فتاة جامح، كلما فيها ينادي بالانقضاض عليها، وتمزيقها قطعة. . قطعة.

غزته موجات تفكير جنسية، وجسدها الطريّ يلامس جسده وهما يتفحصان الكتاب. سألها وهو يقرأ الفقرات الأخيرة من الرواية:

-هل غفرت جمانة لعزيز؟

-اسأل الكاتبة؟ وأشارت إلى نفسها.

-هل غفرت جمانة لعزيز؟

-من تسأل؟

-أسأل الكاتبة؟

-سأتقمص دور الكاتبة، وأجيبك. ربما غفرت له، لكنني لن أغفر لك إن تركتني في يوم من الأيام.

وضحكا. أرجع الكتاب إلى مكانه. جلس على حافة السرير، وسألها:

-لماذا علينا أن نتقابل دائمًا في المنزل؟ سكت لبرهة ثم أضاف: أعني منزلكم. أجابته بصراحة:

-لأنني أخشى عليك من أولاد الحرام. أقصد عمر كومبو وجماعته. واصلت حديثها: إذا حدث وتقابلنا في مكان عام، سينتهي بك الأمر في السجن. وأنا سأموت قبل أن أراك خلف القضبان.

كانت تظن أن تدبير لقاء لهما في البيت سيجنبهما الوقوع في مشاكل هما في غنى عنها، بالإضافة إلى أنها ابنة وزير، والدها رجل مهم في الدولة، وهي لا تريد أن تسبب له المضايقات، لأن الصحف المحلية كانت تصطاد بنات الوزراء ورجال الأعمال وتجعلهن وجبة دسمة للقيل والقال. اللقاء في منزلهم أرحم، وأفضل، وربما آمن من أي مكان آخر، هكذا كانت تظن، لكن الواقع كان له رأي آخر.

ودّعها بقبلة هادئة على جبينها، قبلة لا تحمل أيّة دلالات جنسية، قبلة مليئة بالحب، والعطف والحنان. سحب باب الغرفة وراءه، طلب منها أن تبقى كما هي، وتنام. عبَرَ الصالون بسرعة، ألقى نظرة خاطفة على المنحوتة المسروقة، ومضى إلى الخارج. عندما فتح الباب الكبير المطل على الحديقة،

كان عمر كومبو لا يزال مختبئًا خلف أشجار الموز الكاذب، ويراقب المنزل من خلف الفروع الصفراء الهشّة. ألقى محمود فخر الدين تحية وداع على سارة، عندما رآها عبر النافذة العلوية تراقبه بخوف وقلق، ثم التفت ناحية أشجار الموز والسلاحف، والأرانب، وعمر كومبو المختبئ. ألقى على الجميع تحية ساخرة، ثم مضى إلى الخارج.

***

{8}

كان من السهل على عمر كومبو المختبئ خلف أشجار الموز، أن يوّجه عدسة كاميرته نحو ما يشاء، وفي الوقت الذي يشاء. من يملك الكاميرا هو سيد قراره. ورغم أن عمر كومبو لا علاقة له بالتصوير إطلاقًا، لكنه استطاع أن يلتقط صورة تجمع سارة ومحمود فخرالدين وهما يتبادلان التحية، هي من الطابق العلوي، وهو عند الباب، مثل تلك اللقطات الجميلة التي تجمع العشاق تمامًا، كانت صورته التي التقطها تلك بمثابة دليل كاف للإيقاع بهما. كانت الدليل المادي على وجود علاقة حب حقيقية بينهما.

عاد الوالدان من رحلتهما التي امتدت لشهر وعدة أيام، في الحقيقة هما لم يقررا العودة إلى السودان في هذا الوقت بالذات، لكن خوفهما على ابنتهما الوحيدة، والكوابيس المرعبة التي زارت سناء أثناء نومها عدة مرات، كانت كفيلة باتخاذ قرار العودة إلى الخرطوم، وإلغاء العطلة المدفوعة مسبقًا.

حلمت سناء بأن ابنتهما الوحيدة في غرفة بلا أبواب ولا نوافذ، وأن بداخل الغرفة حيوان مخيف، لم ترَ مثله في حياتها، له أنياب حادة، وعينان

غريبتان، دائريتان، شريرتان. كان ذاك الحيوان اللعين يقطّع جسد سارة إربا. . إربا. ثم يلتهمه بمتعة خاصة، والدِّماء تسيل على أرضية الغرفة. كان هذا الكابوس كفيلًا بعودة الأسرة قبل انقضاء الفترة المحددة للعطلة.

عندما عادت الأسرة من سنغافورة في ساعة متأخرة من مساء يوم غائم، لم تكن سارة بالبيت. كانت في الخارج مع صديقتها ليلى. دخل الوالدان إلى البيت، يساورهما الشك، أن ابنتهما ربما تكون قد جلبت أحدًا إلى المنزل في غيابهما. ربما جلبت رجلًا غريبًا، رجلًا لا تثق فيه الأسرة ولا تعرفه، رجلًا يهدد أمن واستقرار البيت.

بمجرد أن وضعت سناء حقيبتها اليدوية على الطاولة، فتحتها بسرعة، أخرجت هاتفها واتصلت بسارة:

-أين أنت؟ قالتها بدون سلام ولا كلام.

-أنا عند صديقتي ليلى؟

-تعالي إلى البيت بسرعة. وأغلقت الخط.

في حياتها لم تتعود سارة على هذا النوع من الكلام، هذه الطريقة القاسية واللهجة الحادة التي تنذر بما لا يحمد عقباه. أغلب أحاديثها مع والدتها لينة، بسيطة وتأخذ شكل الاقتراحات أحيانًا. لدرجةأنهما عندما يكونا في الصالون يشاهدان حلقة من مسلسل «**Marco polo**» تقترح الأم على سارة تغيير المسلسل بعبارة، ما رأيك في مسلسل «**Alice grace**» مثلًا؟ أو ما رأيك بمتابعة برنامج للطبخ؟ لم تكن سناء قاسية الطّباع، لم يعلُ صوتها ولا مرة في وجه ابنتها الوحيدة، لكنها اليوم بدت كما لو أنها

شخص آخر.

لاحظت ليلى تغير ملامح سارة بعد انتهاء المكالمة، ورأت دمعة حارة تسيل أعلى أنفها، سألتها:

-ما المشكلة؟ سكتت سارة طويلًا، وانتحبت بوجع ثم قالت وهي تمسح دموعها بأصابعها:

-أمي. . تريدني في الحال. ودعت صديقتها وعادت إلى المنزل.

أحسَّت سارة في طريق عودتها للمنزل أن والدتها على علم بموضوع علاقتها مع محمود فخر الدين. كانت هذه هي التهمة الوحيدة التي يمكن إدانتها بها بسهولة، ويسر، وذلك لأن الحب الذي تحبه لعازف الكمان ذاك والمشاعر الجميلة التي تكنها له لا يمكن إخفاءها، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال كتمان هذا الأمر أكثر من ذلك. وفي الحب لا يمكن كتمان المشاعر للأبد. لذلك قررت بينها وبين نفسها أن تخبرهما بالأمر. قالت تحدث نفسها:

-إن سألتني سأجيبها: نعم أحبه، وليحدث ما يحدث.

وصلت سارة إلى المنزل، فتحت باب سيارتها، قفزت إلى خارج السيّارة بقلق ودلفت عبر البوابة الرئيسية إلى الحديقة. لا زال عمر كومبو خلف أشجار الموز، من يراه يظن أنه ينام في الحديقة لكنه كان ينام في بيته الذي يقع في مدينة ام درمان، ويأتي إلى عمله باكرًا، فهو يعمل كسائق خاص وكاتب تقارير. عبرت سارة الحديقة بسرعة، ودخلت إلى البيت، التقت بوالدتها عند الباب، سحبت جسدها إلى الداخل، وجلست على

الأريكة بهدوء.

– جفاء غريب يسكن هذا المنزل، بادرت سارة بالقول. صمتت الأم، في انتظار أن تعترف سارة بجريمتها. في تلك الأثناء كان والدها في غرفته يقرأ تقرير عمر كومبو عن زيارة ذاك الغريب إلى منزل الأسرة. استمر صمت الأم للحظات بعدها فتحت شفتيها وقالت معاتبة:

–رغم علمكِ بموعد وصولنا من سنغافورة، لكنكِ فضلت صديقتكِ على والدتكِ. سكتت لبرهة، ثم أضافت: وفضلت رجلًا آخر على أبيكِ.

تأكدت سارة أن والدتها على علم بكل ما يجري، وعلى معرفة تامة بأدق تفاصيل زيارة محمود فخر الدين الأخيرة. انزوت على الكرسي خائفة ترتجف، الذنب ذنبها هي من جاءت برجل إلى البيت مستغلة غياب والديها، هي أكبر مجرمة في تاريخ الإنسانية، هي من جعلت أضعف الرجال سلطة، يدخل إلى بيت أقوى الرجال. استجمعت أنفاسها لترد على والدها الذي رأته يدفع باب غرفته بانزعاج، سألها بدون أي يلقي عليها تحيته المعتادة:

–من هو هذا الرجل؟ ومد إليها الصورة، تلك التي التقطها عمر كومبو.

أجابته بثقة:

–محمود فخر الدين.

***

{9}

كانت الأيام تخبئُ أسوء ما عندها لمحمود فخر الدين الذي أضحى يحب سارة بجنون. أحبّها حب فاق حبه لوالدته. أكتشف صديقه أمجد فلسفة هذه الحقيقة عندما وجده ذات يوم يعزفُ مقطوعة حب مجنونة أطلق عليها اسم «فرح». كانت دموع الوله التي لا تستطيع العين إمساكها تسيل على خدّه. كان يتوسط غرفة والدته، ويتوسط أيضًا سريرها الكبيرجدًا. كبره واتّساعه ليس بالحجم وإنّما بالحب والحنان. أخذ أمجد فلسفة الكمان من على كتفه ووضعه على الكرسي البلاستيكي. لكن محمود فخر الدين لم يتوقف عن العزف وراح يحرك قوس الكمان على كتفه. كان تدفق اللحن ما زال يجري في أوصاله إلى أن أعاده أمجد فلسفة إلى الواقع بأن نزع منه القوس ورماه على السرير. قال له مغتاظًا:

-إن لم تعد تعزف من أجل أمك، الأفضل أن تتوقف عن العزف.

لم يرد محمود فخر الدين على أمجد فلسفة، ولم يفتح عينيه ليراه من الأساس، لأن انسياب مقطوعة الحب ما زالت تجري في أوصاله، وبعد دقائق استلقى على السرير بالقرب من القوس ونام.

الشخص الوحيد القادر على فهمه هو أمجد فلسفة، فهو يعرفه أكثر

من نفسه، يعرفه أكثر من والدته، وأكثر من والده الغائب. يعرف أن هذه المقطوعة ليست لأمه بل لحبيبته، وأن هذه الدموع سببها الحب وليس الحزن. لذلك كان عليه أن يحذره من الوقوع في الحب لهذه الدرجة، من السباحة في بحور العشق بلا سترة نجاة، لأن مصيره سيكون الغرق في النهاية. أزاح أمجد فلسفة القوس بعيدًا بطريقة قوية طار القوس على أثرها وسقط على الأوتار من دون قصد، والتي أصدرت بدورها نغمة هادئة، كنغمة اختبار. جعلت محمود فخر الدين يبتسم في نومه ويحتضن نفسه بشدة.

من يوقظه من ورطته التي لا يشعر بها حتى الآن؟ من يجنّبه بطش الوزير الذي قرر وبطريقة لا يعرفها أحد القضاء عليه، وتدميره؟ من ينصحه بالابتعاد قبل أن تحل عليه اللعنة؟ لعنة الوزير المبجل الذي هبط من السماء ليحكم على الناس بالإعدام.

اختفت سارة عن الأنظار، لم تعد تتصل به كثيرًا، وعندما يتصل هو بها يحدثه المجيب الآلي بأن هاتفها مغلق، كان المجيب الآلي بمثابة رسالة قدرية جاءته من السماء لتخبره بأن عليه أن يُغلق باب الحب وينساها، ويعود إلى كمانه، إلى خشبته التي يعزف عليها. لكنه كان عنيدًا جدًا، عاشقًا صامدًا لا يتراجع، لا يتوب أبدًا. لذلك عندما استيقظ ذات صباح وكانت سارة وقتها قد غابت عنه قرابة الشهرين دون أن يعلم عنها شيئًا، أخذ كمانه الكلاسيكي وضعه على كتفه وانطلق إلى بيت الوزير.

وكعادة صديقه أمجد فلسفة يزوره في الصباح، يشربان الشّاي

ويدخلان في أحاديث مختلفة، ومتشعبة لا تنتهي أبدًا. اليوم وعندما أدخل أمجد فلسفة رأسه عبر فتحة الباب ليوقظه، لاحظ وجود دلالات تشير إلى خروجه مبكرًا. الكمان غير موجود، السرير غير مرتب، ورائحة عطر«DAKAR» المميزة تدل على خروجه قبل لحظات. الغريب في الأمر أن محمود فخر الدين لم يخبر أمجد فلسفة بنيّته الذهاب إلى سارة. في الحقيقة هو لم يخبر نفسه حتى، الأمر حدث مصادفة، وفي الصدفة تحدث العجائب. دلف أمجد فلسفة إلى الغرفة وجلس على السرير، وانتظر عودة صديقه، الذي سيعود بعد لحظات قليلة حسبما ظن.

عندما وصل محمود فخر الدين إلى منزل سارة، كان والدها قد خرج لعمله للتّو. التقى الاثنان عند الشارع العام. رأى الوزير عبر زجاج سيارته المظلّل حقيبة كمان على ظهر شاب مسرع، لكنه لم يعره أدنى اهتمام فقد كان مشغولًا بالتفكير في قضية الفساد التي ضربت وزارته والتي نشرتها الصحف صباحًا. عبَر محمود فخر الدين الحديقة، وخلف أشجار الموز ظهر عمر كومبو بكاميرته، ودفتره. وبدلًا من التقاط صورة لمحمود فخر الدين راح عمر كومبو يلتقط صورًا للسلحفاة الكسولة، والأرانب الصغيرة وهي تنط هنا وهناك. قال محمود فخر الدين مُحدِّثا نفسه:

-يبدو أن هذا الرجل يسكن خلف أشجار الموز. . مشى خطوتين ثم أضاف:

-ربما يكون أرنبًا أو سلحفاةً، من يدري؟

سار إلى الباب الكبير، وقف بالقرب منه كمن ينوي قرع الجرس

لكنه عوضًا عن ذلك أخرج كمانه، وضعه على كتفه، أمسك بالقوس أغمض عينيه وعزف بطريقة جنونية طربُت لها الأرانب والسلحفاة مقطوعة الأميرة سعاد رقم 1176أو مقطوعة «بؤس العالم» كما سمّاها أمجد فلسفة، وهي نفس المقطوعة التي عزفها ذات يوم في مسابقة أجمل معزوفة كمان الخاصة بمركز سارة للموسيقى، والتي كانت سببًا في وقوع سارة في غرامه.

طارت الألحان كفراشات حزينة ودخلت إلى البيت عبر النوافذ والفتحات. في ذلك الوقت كانت سارة التي مُنعت من الخروج تستلقي على سريرها حزينة ومكتئبة، وصلتها الألحان إلى داخل غرفتها، قفزت من السرير كالملسوعة وجرت إلى مصدر الألحان. كان قلبها يقول: إنه هو. . لا أحد غيره، لا كمان غير كمانه. وعندما وصلت إلى الشرفة أصبح اللحن وقتها أكثر وضوحًا من ذي قبل. نزلت إلى الأسفل فوجدته واقفًا أمام الباب، عيناه دامعتان، جسده يهتز. لم يكن موجودًا عند باب بيتهم، وإنما كان موجود عند باب الحب. احتضنته بقوة، تحت أنظار عمر كومبو الذي وضع الكاميرا على عينه اليمنى والتقط عشرات الصور. أخبرته أن مجيئه إلى هنا فيه مخاطرة كبيرة، أن زيارته المفاجئة هذه غير مُرحّب بها، فهي كزيارة لبيت التنّين، ومحاولة العبث ببيضاته، والأهم من كلّ هذا أخبرته بأنها تحبه رغم كل شيء. طلبت منه الذهاب ووعدته بأنها ستزوره عما قريب. في أقرب وقت ممكن.

عاد محمود فخر الدين إلى بيته سليمًا، مفعمًا بالحب، وغارقًا فيه حد

الامتلاء. وجد أمجد فلسفة في انتظاره، نزع حقيبة الكمان عن كتفه، وقال لأمجد فلسفة قبل أن يسأله:

-كنت عند سارة. هبّ أمجد واقفًا.

-هل تقصد أنك ذهبت إلى منزلهم؟

-نعم

-هل أنت مجنون؟ كيف تجرؤ؟ وسكت.

أراد محمود فخر الدين الدفاع عن نفسه لكنّه فشل. كان واضح تمامًا أن ما قام به مجازفة كبيرة، ومخاطرة لعينة قد تنجح مرّة ولكن الفشل يحيط بها من كل الاتجاهات. أعاد بمغامرته تلك موجات الحب إلى بطشها الأول، أعاد إليها قوتّها، وعنفوانها وتمردها فضربت شواطئ سارة التي هدأت لأشهر قليلة وأغرقتها مجددًا في حب عميق.

لم يكلف الوزير نفسه عناء البحث عن هذا الرجل الذي يُلّوح إلى ابنته في الصورة، ولم يكلف نفسه عناء التحدث مع سارة عن هذا الموضوع رغم أنه منعها من السفر، والخروج، أو الذهاب إلى مركز الموسيقى. لكنه كان يخطط لشيء لم يكن في حسبانهما، شيء سيحيل هذا الحب إلى جحيم لا يطاق. وكانت نفسه تهدأ قليلًا عندما يتذكر حب ابنته لهذا الرجل، وتثور كثيرًا عندما يتذكر مكانته، وطبقته، ومهنته التي يمتهنها. يقول لنفسه: هو مجرّد عازف كمان وحسب. لذلك قرر بينه وبين نفسه أن يمنح سارة فرصة لإصلاح هذا العبث. أعطاها كامل الحرية لإنهاء هذه العلاقة المبتورة، وإلا فإن تدخله سيكون حاسِمًا وستتدفّق على إثره شلالات من

الدِّماء والآلام التي لا تنتهي.

لدى الوزير مجموعة حماية مُدرّبة، وحرس شخصي شرس. كان بإمكانه أن يشير فقط بأصبعه إلى محمود فخر الدين ليتم ضربه وركله، وتشويه وجهه وكسر الكمان على رأسه، وليته فعل ذلك بدلًا عمّا سيفعله به في مقبل الأيام. كان الحرس الشخصي للمنزل المكوّن من أربعة أفراد يفسح المجال لدخول محمود فخر الدين بأمر من سارة التي كانت تهددهم بالطرد إن لم يسمحوا له بالدخول، كانوا يعطلون كاميرات المراقبة لحظة مجيئه، لذلك كان من السهل عليه الدخول إلى بيت الوزير أنّى شاء ومتى ما رأى ذلك مناسبًا.

إلى الآن تجرّأ محمود فخر الدين على الذهاب إلى بيت الوزير مرتين. مرة أثناء سفره، ومرة أخرى أثناء خروجه للعمل. وقد زار سارة مرة في منزلها الخاص بوسط الخرطوم في أول لقاء لهما. لكن سارة لم تزره حتى الآن. رغم أنها تعرف أين يسكن؟ ومع من؟ وشكل البيت من الخارج والغرف التي بالداخل. ذلك أن مجرد التفكير في زيارته كان أمرًا مستحيلًا، وصعبًا وفيه مخاطرة كبيرة أكبر من خطورة اللعب مع الأسود المرّوضة. ذلك أنها ستنقض على مروّضها في يوم ما عندما تغضب، أو عندما تجوع، وكانت سارة تُحب هذا النوع من المخاطرة. كانت تحب المغامرات لذلك طلبت من عمر كومبو ألا يرافقها هذا المساء لأنها ستخرج في نزهة قصيرة إلى مكان ما تعود بعدها إلى البيت.

ابتسم عمر كومبو اللعين، أخرج هاتفه واتصل بالوزير ساردًا له كل

التفاصيل. امتعض الوزير على الجانب الآخر، وأمر عمر كومبو بمتابعتها واللحاق بها إلى أي مكان تذهب إليه، حتى وإن ذهبت إلى الجحيم. ثم كتابة تقرير مفصل عما سيجرى.

وصلت سارة إلى المكان الذي يُقيم فيه محمود فخر الدين، الحيّ الذي نشأ وترعرع فيه، المكان الذي تعلم فيه العزف على الكمان. لأول مرة في حياتها ترى مثل هذه البيوت «الجالوصية» القديمة بأم عينها، ورغم أنها تصورتها أكثر جمالًا عندما شاهدتها على شاشة التلفزيون، أو عندما مرّت بها فجأة وهي في طريقها إلى مكان آخر. لكن بيوت الطين بدت أكثر قبحًا، وشقوقًا وشروخًا لا حدود لها. قالت تحدّث نفسها:

-لا بيت جميل. كل البيوت قديمة ومتهالكة. . أجابها صوت ما داخلها: البيوت ليست جميلة. لكن قاطنيها رائعين.

دلفت سارة إلى بيته بثقة كأنها تدلف إلى غرفتها. دفعت الباب برفق وحشرت جسدها عبره. كانت تعرف إنه موجود برفقة صديقه أمجد فلسفة، وكانت تعرف أيضًا مكان وجود الكمانين، كمانه الأصلي الأول، وكمانها الكلاسيكي الذي أهدته إياه ذات يوم. سمع الاثنان صرير الباب، وراحا يحزران من القادم؟ قال أمجد فلسفة مُداعبًا صديقه وساخرًا منه في نفس الوقت:

-يبدو أنها ابنة الوزير. . وسكت. أجاب محمود فخر الدين:

-لا أظن. أخبرتني أنها ستزورني لكن على الأقل ليس الآن. وليس هنا. . وتدخلت سارة في هذه اللحظة:

-الأفضل أن تظن.

ووقف الاثنان من هول المفاجأة، ولم يستطع أيّ منها النطق بحرف. أما هي فجلست على أحد الكراسي البلاستيكية المبعثرة في فناء الغرفة المطلة على باب البيت، واحتضنت حقيبتها. أما محمود فخر الدين فلم يعرف كيف يتصرف وبأي طريقة سيعاملها. كان يشعر بأنه الضيف، وأنها صاحبة المنزل. أول ما نطق به من كلام كان:

-مرحبًا بكِ في بيتي المتواضع!

لم يكن موفقًا في اختيار الكلمات والعبارات. كانت تعبيراته تخونه عندما يحتاجها، ما اضطر أمجد فلسفة للتدخل ومساعدته على امتصاص المفاجأة، والعودة إلى الطريق الصحيح، وقيادة دفّة الحديث كما كان يفعل دائمًا.

في الخارج كان عمر كومبو قد وصل برفقة مجموعة من الرجال، الأشداء، الأقوياء، أخرج كاميرته والتقط صورًا لعربتها بالقرب من بيوت الطين المتهالكة، ومضى!

خرج أمجد فلسفة من البيت وترك لهما كامل الحرية في التحدث والاقتراب من بعضهما البعض. لحظة خروجه من الباب الصغير رأى سيارة سوداء قاتمة تعبر الزقاق الضيق المفضي إلى الشارع الرئيسي.

وحدث ما لم يكن في الحسبان، اقترب محمود فخر الدين من سارة واقتربت منه لدرجة جعلته يحس بدفء أنفاسها، ورائحة السجائر المرّة المنبعثة منه كادت تخنقها. احتضنها بقوة ثم مال بشفتيه نحو شفتيها

وغرقا في القبلات، وعندما انتهيا من رحلتهما الممتعة أو توقفا ليستجمعا أنفاسهما، أراد محمود فخر الدين أن يجلب الكمان ويعزف لها مقطوعته الجديدة التي ألّفها من أجلها أو من أجل غيابها. لكنها سحبته إليها -وكان وقتها قد وقف على هيئته- كأنها تقول له أعزف على جسدي ولا داعي لتعزف على الكمان.

وبالرغم من أنهما لم يقررا خوض تجربة جنسية بعد. حدث كل شيء مصادفة وبدون تخطيط. أمسك بها وضمها إليه بقوة، وراح يسحب سوستة فستانها الجميل ببطء مقصود ويضمها أكثر فأكثر، ثم حشر كلتا يديه عبر فتحة الفستان الخلفية وراح يداعب ظهرها العاري بطريقة مجنونة جعلتها تتلوى كأفعى ثم تنزع كل ملابسها، وترتمي على السرير. ارتمى هو الآخر في حضنها وانتهى بهما الأمر ملتصقين مع بعضهما بطريقة رائعة وحميمة، شهدت عليها صورة والدته المعلقة على الجدران وباركتها آلهة الكمان العظيمة.

في صباح اليوم التالي، وعلى أريكة مكتبه المؤقت بشارع النيل قرأ الوزير المبجل تقرير عمر كومبو الأخيرعن خروج ابنته للقاء عازف كمان مغمور. هزّته جملة كُتبت بخط رفيع أسفل التقرير: «يبدو أنهما مارسا الجنس». أطاح بالورقة بعيدًا، وخرج من المكتب غاضبًا، ومنزعجًا يفكر في طريقة لحسم الأمر بنفسه.

***

{10}

-هل مارستما الجنس؟

-تقريبًا.

-الجنس لا يعترف بالتقريب، إما نعم أو لا. .

-إن كنت تريد الحقيقة فأنا أخبرتك إياها، أما إن كنت تريدني أن أجيبك على سؤالك فقط فالإجابة نعم.

وسكت محمود فخر الدين. لكن أمجد فلسفة الذي جاء مبكرًا جدًا هذا الصباح على غير عادته واصل التحدث بطريقة بدت غير مألوفة لديه. قال وهو يرتشف الشاي الأحمر: يقولون إن العلاقات الجنسية غير المخطط لها ينتج عنها أطفالًا. . صمت لثانيتين ثم حكى قصة شاب التقى بفتاة في الحديقة العامة. استرقا قبلتين سريعتين بعدها ذهبا إلى زاوية ضيقة تقع في مكان نائي، وفعلا فعلتهما لتأتي الفتاة بعد تسعة أشهر بطفلة جميلة سمتها صدفة.

هنا هبّ محمود فخر الدين واقفًا، وكاد أن يركل الطاولة الخشبية التي تفصل بينهما. ضحك أمجد فلسفة ساخرًا منه. أخذ رشفة أخرى من كوب الشاي وقال يطمئنه:

-لا تخف، إنهم يقولون فقط. صمت هُنيهة وأردف: غدًا تعال عندي في بيتنا لنتناقش عن نظريتي في الجنس. وقال محمود فخر الدين متعجبًا:

-نظرية في الجنس؟ هذا موضوع مثير للاهتمام، لكن الأفضل أن نتحدث عنها الآن. تعرف أني لا أحبذ الانتظار.

-لم أكملها بعد. اليوم سأنتهي من رسم كل الخطوط، وغدًا ستُحظى أنت ولا أحد غيرك بشرف الاطلاع على نظريتي الجديدة.

لكن غدًا لم يأتِ وربما لن يأتي أبدًا. كان أمجد فلسفة قد اشتغل على وضع مجموعة أفكار عن الحب والجنس، كان يرى أن الحب هو الجنس وليس العكس، وإن العشّاق يفعلون ما يفعلون من أجل الوصول إلى هذه النقطة بالتحديد. بعدها يبدو كل شيء عادي وباهت، مثير للاشمئزاز ومقزز. ومن المحتمل أن أيّ علاقة حب تتبعها مداعبات جنسية ولكن ليس بالضرورة أن أي علاقة جنسية تتبعها موجات من الحب.

في مكان آخر. اجتمع الوزير مع عمر كومبو ومجموعة الرجال الذين شاهدوا عربة سارة خارج بيت محمود فخر الدين، وكانت الصور التي التقطوها على الكاميرا على كثرتها لا تساوي شيئًا مقارنة بعبارة «يبدو أنهما مارسا الجنس» المكتوبة أسفل التقرير. لذلك أمر الوزير عمر كومبو ومجموعته بالقبض على محمود فخر الدين، واقتياده إلى مكان مجهول. ليفكر الوزير بعدها ماذا سيفعل به؟

وجاء مساء اليوم التالي بسرعة. كان محمود فخر الدين يحادث سارة هاتِفيًا، وترتسم على شفتيه الحالمتين ابتسامة رائعة. الغريب في الأمر أن

والد سارة لم يبد انزعاجه منها لخروجها بالأمس والذهاب إلى بيت رجل غريب. كان يضمر الأشياء في قلبه. هو من نوعية الأشخاص الذين يصافحون بيد وبالأخرى يخبئون الخنجر المسموم. على طاولة الغداء عندما أخذت سارة هاتفها وذهبت وفي فمها نصف ابتسامة لتتحدث مع حبيبها. كان والدها يعلم أنها تحدثه، أنها تكلم الرجل الذي سينقض عليه عمر كومبو ومجموعته مساء اليوم عندما يأتي الليل ويغرق ذاك الحي في الظلام. هو في حقيقة الأمر لم يرد أن يُشعرها بما يحمله من ضغينة تجاه حبيبها، وبخطته التي ستحيل حياتها إلى جحيم لا يطاق، ومن أجل كل هذه الاعتبارات ناداها بحنان أبوي خالص وكانت وقتها قد جلست على مقربة من طاولة العشاء:

-دعي الهاتف وتعالي لتُكمِلي طعامك.

وسمع محمود فخر الدين هذا النداء الذي زاده راحة وطمئنه، والذي أكد له أيضًا بصورة قاطعة أن العلاقة بين سارة ووالدها على ما يرام، على الأقل أفضل من ذي قبل.

وعندما لم تُلبِّ سارة نداء والدها بسرعة، تدخلت الأم معاتبة:

-ألم يخبرك والدك بأن تتركي الهاتف؟

كانت سارة وقتها قد أنهت المكالمة للتو، وعادت لتنضم إليهما على الطاولة. أما هو فقد احتضن هاتفه، وراح يفكر فيما فعلاه مساء الأمس.

بعد لحظات؛ وحينما كان الهاتف بين احضانه أحس محمود فخر الدين بوميض خفيف ينبعث من الشاشة، وانطلقت بعده نغمة هادئة. كان

المتصل أمجد فلسفة الذي طلب منه المجيء بسرعة وإحضار الكمان معه. فأمجد فلسفة سيتحدث عن نظريته الجديدة في الجنس، أما محمود فخر الدين فعليه أن يعزف عنه.

ترك محمود فخر الدين هاتفه بالغرفة. علّق حقيبة الكمان على كتفه وأخذ خطوتين إلى الخارج، وكانت هاتين الخطوتين آخر خطوتين يخطوهما داخل غرفة والدته، الأميرة سعاد. فتح الباب الرئيسي وحاول العبور من خلاله، فلم يقدر لضيق الباب ولأنه وضع حقيبة الكمان على كتفه بشكل فوضوي اضطره إلى نزع الحقيبة ووضعِها على الأرض، ثم عبر بجسده النحيل، وأعاد يده ليلتقط حقيبة الكمان، وعندما التقطها وضعها على كتفه مُجددًا، وأخذ يمشي مسرعًا إلى منزل أمجد فلسفة.

وفجأة شعر بظلّ رجل ضخم يمشي وراءه، وجاءت العربة السوداء تلك مُحمّلة برجال آخرين. أحسّ محمود فخر الدين بالخطر لكنه واصل المشي بسرعةٍ وخوف كبيرين. أحس بذاك الضخم يقترب منه أكثر فأكثر إلى أن أمسك بحقيبة الكمان، نزعها من كتفه كأنه يقتلع فرعًا من شجرة، ثم هوى بالضرب عليه إلى أن أفقده الوعي. حطّم الكمان على رأسه، وبمساعدة من عمر كومبو وآخرين وضعوه على السيارة السوداء واقتادوه إلى مكان مجهول.

***

{11}

عندما بدأ محمود فخر الدين يستعيد وعيه تدريجيًا أحس بألم حاد في رأسه كأنما ضُرب على جمجمّته بمطرقة حديدية عملاقة. كان شعر رأسه مخضبًا بالدم، وعيناه المحمرتّان لا تستطيعان النظر إلى بُعد ملّيمترين. بدا كما لو أنه عاد من الموت إلى الحياة بعينين تعانيان قصر النظر. لذلك لم يتمكّن من التعرف على المكان الذي هو فيه. حاول الوقوف على قدميه لكنهما لم تقويا على حمله فسقط على الأرض كمحارب نبيل، وراح يئن ويئن ويتنفس بصعوبة بالغة.

هو الآن بداخل غرفة ضيقة، قذرة، حالكة الظلام، ليس بها نوافذ لدخول الهواء. بابها صغير مغلق طوال الوقت، وبها قطعٌ من الكرتون مبعثرة على الأرضية. تشبه الغرفة في شكلها مخزن صغير يستعمل لتكديس البضائع، والناس. تكوّم في إحدى الزوايا وراح يفكر في مصيره. على الرغم من أنه لم يستعيد وعيه كاملًا حتى الآن إلا أن خيوط التفكير في مصيره كانت تتشابك في ذاكرته، وتُنتج أسئلة معقدة. لماذا أنا هنا؟ ومن أتى بي إلى هذه الغرفة اللعينة؟ أين أنا؟ أضحى محمود فخر الدين ككومة من اللحم، والعظم الرخيص. كان يصدر أنينًا قويًا يُعبّر

به عن مقدار الألم الذي يعانيه، عن مقدار الوجع الذي ينخر جسده، عن مأساته، وقسوة، وظلم الحياة والبشر.

ودلف إلى الغرفة المظلمة رجل ضخم، أصلع الرأس، له هيئةُ مصارِع ثيران. فتح الرجل «سوستة» سرواله وراح يتبول على رأس محمود فخر الدين الذي احتضن نفسه بقوة مانِعًا قطرات البول من الوصول إلى فمه. كانت مثانة الرجل ممتلئة بالبول المالح، كأنما أُخِذ من مياه البحر الميت. لذلك عندما وصلت قطرات البول المالحة إلى الخدوش، والجروح التي على رأسه شعر بها كمحلولٍ طبّي يستخدم لتطهير الجروح وتضميدها. كانت جروحه تحتاج لمن يضمدها ويعالجها، وكانوا يعالجونها بالبول المتكرر عليها لمدة خمسة أيام. لم يرَ محمود فخر الدين خلالها سوى الظلام، ولم يسمع سوى خرير البول المتدفق على رأسه.

حتى الآن لا يعرف أمجد فلسفة شيئًا عن صديقه. كان ينتظره في البيت عنده ليحدثه عن نظريته في الجنس، انتظره كثيرًا لكنه لم يأتِ. الانتظار عمل مرهق. بالتأكيد هو لا يحتاج إلى جهد بدني وعضلي لكن كميات الجهد التي تبذلها الروح انتظارًا أكثر رهقًا من العمل في مناجم الذهب.

عندما طال انتظاره ولم يدخل محمود فخر الدين عبر الباب الخشبي المفتوح. شعر أمجد فلسفة بالقلق وراح يتصل به مرّة ومرّتان وثلاثة، ولكن لا أحد يجيب. عندها أحس أمجد فلسفة بالغضب وتوعّد بضربه لحظة دخوله. وفي مكان آخر وسط العاصمة الخرطوم، وفي غرفة مغلقة، ومظلمة، كان محمود فخر الدين وقتذاك قد نال حظه من الضرب،

والتعنيف والتعذيب، والإهانة.

أخيرًا وبعد انتظار دام لساعتين وضع أمجد فلسفة الكتاب الذي كان يقرأه جانبًا، أراد الذهاب إلى محمود فخر الدين، لكنه رأى ضرورة الصبر، والانتظار. لذلك أخذ الكتاب مجددًا وراح يقرأ: «وعندما يقع شخص ما في الحب بشهيّة، تعتبر أخطاء ونزوات خليلته الصغيرة، وغيرتها، ومشاكستها، حتى في وضعية الجماع. . . . . » ولم يكمل قراءة الفقرة كاملة. وضع الكتاب على المنضدة، هبّ واقفًا، ومتسائلًا لماذا لم يأتِ هذا العازف الغبي حتى الآن؟ وقرر الذهاب إليه ومسكِه من حقيبة كمانه، وجرّه كما تُجرّ الخراف وتساق إلى المسلخ. لكنه عندما وصل إلى الزقاق الضيّق الذي يقع فيه بيت فخر الدين أيوب القديم، وجد حقيبة الكمان ممزّقة على الأرض، والكمان مكسّر ومفكّك إلى أجزاء صغيرة. القوس مكسور، الأوتار الأربعة مقطوعة، لوحة الأصابع، والمشط لا وجود لهما. في تلك اللحظة بالذات وضع أمجد فلسفة كلتا يديه على رأسه من هول المصيبة، جثا على ركبتيه وصرخ بوجع.

جمعَ كمانَ صديقه المُكسّر من الأرض قطعة. . قطعة، وترا، وتر. احتضن القطع المكسرة بحنان كمن يحتضن طفلًا صغيرًا، ثم أخذَها وذهب إلى منزل صديقه ليتفقده. في الطريق إلى هناك قابلته امرأة عجوز تُدعى الأم زينب، وهي امرأة طاعنة في السن تسكن في المنزل المقابل لمنزل محمود فخر الدين. كان محمود فخر الدين يرعاها، ويهتم بها مثل ما يفعل الابن البار مع والدته. لذلك عندما رأت أمجد فلسفة أحست بضرورة

السؤال عن محمود فخر الدين الذي لم يأت إلى منزلها هذا الصباح. سألت عنه، وعن أحواله ودعت الله أن يرحم والدته الأميرة سعاد التي ربّته أحسن تربية، ودعت الله أيضًا أن يُنزل لعناته على فخر الدين أيوب الذي ترك ابنه بلا مبررات، وارتمى في حضن فتاة صغيرة.

كانت العجوز تدعوالله تارة وتبرطم بكلام غير مفهوم تارة أخرى، وكان أمجد فلسفة حائرًا، وتائهًا ومحتارًا، ولم يستطع الاجابة عن أسئلتها الكثيرة، والمملة. لأنه هو نفسه لا يعرف الإجابة. وعندما أدارت العجوز ظهرها في اتجاه منزلها أجاب أمجد فلسفة كذبًا:

-محمود بخير. .

والتفتت العجوز نحوه كأنما تريد أن تتفحص بقايا الكمان الذي بحوزته، أو تريد أن تختبر صدق ما قاله. . وعندما لم يقنعها جوابه قالت برجاء:

-أتمنى أن يكون بخير ومضت.

لا تعرف العجوز المسكينة أن خير الدنيا بارح محمود فخر الدين منذ أن تُوفّيت والدته، ومنذ أن أحب سارة ابنة الوزير المبجل، وحل محله شرًا مستطيرًا. ذاك النوع من الشّر الذي يختبئ خلف الفراغ بصبرعجيب، ثم ينقض بقوة ليحيل كل الحياة إلى أوجاع وآلام.

دلف أمجد فلسفة عبر الباب الضيق إلى فناء البيت. كان يحدوه بصيص أمل أن يجده في مكان ما في المنزل، رغم أن كل الدلالات كانت تشير إلى عدم وجوده. الهاتف مُلقى على السرير، الغرفة مرتبة نوعًا ما، والكمان

الآخر ما زال موضوعًا في زاويته دون حراك، وعليه ورقة صغيرة مكتوب عليها: «تبًا لقد وقعت في الحب». سمع أمجد فلسفة ألحان حزينة تهرب من أوتار الكمان الصامت. ألحان غير معزوفة لكنها مسموعة، كأن أوتار الكمان تريد إخباره بما جرى لصديقه، لكن بطريقتها الخاصة. سأل نفسه:

-أين اختفى هذا المعتوه؟

ولأن الإجابة على هكذا سؤال أمرٌ صعب، ويتطلب التأني، والهدوء، جلس أمجد فلسفة على حافة السرير وراح يفكر في إجابة. وكانت بقايا الكمان المكسور تخبره بالإجابة، وهي أن صديقه في خطر، مفكك ومكسور مثل الكمان. أخذ أمجد فلسفة الهاتف من السرير، وبحث في سجل المكالمات عن آخر الأرقام التي اتصل بها محمود فخر الدين، وجد رقمه في أعلى القائمة، يليه رقم سارة. قال لنفسه: أيكون عندها؟ ثم ضغط على زر الاتصال.

-مساء الخير، سارة!

-مساء النور؟

احتار أمجد فلسفة ماذا يقول بعد مساء الخير، وجدَ نفسه مُحْرجًا، كما أن هدوءها وصوتها الدافئ يبعدان احتمالية وجود محمود فخر الدين عندها، لذلك صمتَ قليلًا ثم قال:

-وددت أن اطمئن عليك!

-أنا بخير. وأنت؟

-بخير. ثم باغتته: أين محمود فخر الدين؟

صمتَ طويلًا . في تلك الأثناء أرسلت أنفاسه المضطّربة إشارات سلبية إلى سارة. لكنه استجمع أنفاسه وقوته: وأجابها:

-لا أعرف. اتَّصلت بكِ لأسألكِ عنه.

-كنت أتحدث معه قبل قليل.

-قبل قليل! تقصدين قبل ساعات؟

-لا أعرف.

-المهم، يبدو أنه في خطر. سكت أمجد فلسفة لبرهة ثم أتم: وجدت كمانه مكسرًا ومحطمًا إلى أجزاء، وهذا نذير شؤم.

على الجانب الآخر وقفت سارة على قدميها من فرط الخوف على حبيبها، وجاء صوتها الدافئ المختلط بالقلق والبكاء ليقطع الشك باليقين أن محمود فخر الدين ليس بخير. تنهدت بأسى وأغلقت الخط.

***

{12}

انزوى محمود فخر الدين على نفسه، واحتضنها بقوة. الألم الذي يشعر به الآن يمنعه التفكير في أي شيء عداه. لا يقدر الرجل على التفكير في أي شيء آخر حينما يكون ثمة ألم في جسده، ألم ثقيل لا يمكن تحمله، ألم ينخر الروح والجسد معًا. ذاك النوع من الألم الذي يُغلق كل الأبواب ويفتح بابًا واحدًا يدخل من خلاله الوجع، والأنين.

على باب الغرفة المظلمة كانت هناك فتحة صغيرة تتسلل منها أشعة الشمس إلى الداخل. كانت هذه الفتحة الدافع الوحيد له لمواصلة الحياة والأمل، فمن خلالها كان يسمع أصواتًا لوقع أقدام أشخاصٍ مسرعين، وضجيج سيارات، وأزيز طائرات، وفي الصباح الباكر كان يسمع زقزقة العصافير التي كانت تتجمع في المساحة الخالية أمام الغرفة، وفي الليل يسمع صفير حشرات مزعجة، وتتسلل إليه عبرة الفتحة أيضًا رائحة السجائر والدُّخان، وأشياء أخرى مختلفة تحفزه على مواصلة الحياة، وعدم الاستسلام.

لكن رائحة سارة لم تتسلل إليه عبر الفتحة أبدًا. هدوءها، نعومتها، غرورها، كبرياءها، إصرارها، وعزيمتها، وروح التحدي، والمغامرة

اللذان تتمتع بهما. فتاة مثلها تحتاج لفتحة كبيرة، ثلمة عجيبة، وواسعة كالفراغ تمامًا.

وبدأ الشعاع المنبعث عبر الفتحة ينحسر شيئًا فشيئًا، ما يدل على قدوم شخص ما، أو ربما مجموعة من الأشخاص. ولما أحس محمود فخر الدين بانحسار الشعاع، زاد من احتضان نفسه لدرجة جعلت جسده يتقلص ويصبح ككتلة لحم صغيرة مكوّرة الشكل، يسهل دفعها، ودحرجتها. بعد لحظات قليلة أصدر الباب صريرًا خفيفًا ثم اندفع شعاع الشمس إلى داخل الغرفة بشوق، وخلف الشعاع المُشتاق أطلّ رجلان شريران لهما ملامح قاسية، وجادّة وراحا يتحدثان عن مصيره.

-ماذا سنفعل بهذا الرجل؟

-لننتظر ما سيقوله لنا عمر كومبو.

وقبل أن يدلف عمر كومبو إلى الغرفة، تبوَّل الرجلان على الزاوية التي يتكور فيها محمود فخر الدين. ولما دخل عمر كومبو إلى الغُرفة أغلق أنفه بكفة يديه اليمنى. كانت للغرفة رائحة عطنة وكريهة، كرائحة المسالخ المتعفنة. كما أن رائحة بول الرجلين، بالإضافة إلى رائحة بول محمود فخرالدين وبرازه اليابس المكدس في الزوايا أحالت الغرفة إلى مصنع كبيرللقذارة والعفونة. وسأل أحد الرجلان عمر كومبو:

-ماذا سنفعل بهذا المسكين؟ أجاب عمر كومبو وهو يحاول إشعال سيجارته:

-استمِّرا في التبول عليه يوميًا إلى أن تأتينا الأوامر من الوزير.

ذاك الصباح سلّم عمر كومبو تقريره اليومي إلى الوزير المبجل. غمرته الفرحة، واعتلت عيناه لمعة انتصار طفيفة. في مبادئ الاقتِتَال الانتصار على رجل ضعيف لا يعتبر انتصارًا حقيقيًا خاصةً عندما تكون موازين القوة غير متكافئة بين المقتَتِلَين. لكن الوزير كان يرى في القبض على محمود فخر الدين، واقتياده إلى مكان مجهول انتصارًا عظيمًا لا يمكن نكرانه، انتصار لا يقدر على تحقيقه سوى الوزراء، وذوي النفوذ.

بعد قراءة التقرير اليومي، جلس الوزيرعلى أريكة مكتبه يفكر فيما سيفعله بهذا المسكين؟ أيطلق سراحه بعد أن يلقنه درسًا عظيمًا مفاده عدم الاقتراب من ابنته؟ أم عليه الانتظار قليلًا ثم أخذ القرار المناسب. حينما يتذكر الوزير حب ابنته لهذا الرجل، ويتذكر شرودها وضيقها، وامتناعها عن الطّعام والشَّراب، بل ومرضها الأخير يفكر جديًا في إطلاق سراحه، ورميه في مكان قصي خارج المدينة، وتحذيره من الاقتراب منها مجددًا. لكنه حينما يتذكر عناد عازفي الكمان، وعزيمتهم في التمسك بالكمان، ومتابعة تواتر وتدفق الألحان بعناد، وقتذاك يحدث نفسه بضرورة الإبقاء عليه لفترة طويلة، قائلًا لنفسه: من الصعب أن يتخلى عازف كمان عن كمانه بسهولة.

تتالت الأيام. استمر غياب محمود فخر الدين لأيام طويلة دون معرفة موقعه، أو مكان اختفائه. وبعد البحث عنه في كل الأمكنة، الأزقة الضيقة، شارع الكتب القديمة، وزقاق المجانين، ومقهى المثقفين، أقسام الشرطة، وبيت الموسيقى، لم يتم العثور عليه. لم يتم العثور على خيط أمل يدل على

مكان وجوده، كأنما اختفى في الهواء، تلاشى كما يتلاشى الدُّخان.

جن جنون سارة، أصبحت تصرخ كثيرًا، وتبكي كثيرًا. والدتها لم تكن تعرف سبب هذا البكاء، هذا الضيق الذي يلازم ابنتها منذ أيام. والدها كان يظن أن اختفاء محمود فخر الدين هو السبب الأول والأخير لهذا التغير المفاجئ، فهو يعرف مقدار تعلق ابنته بذاك الرجل، وما تكنّه له من حب. لكن سناء أخبرته بعد عودتهما من العيادة، التي ذهبتا إليها بعد سقوط سارة عدة مرات في الصالون. قالت له:

-لقد تورطنا يا أيمن؟ وقبل أن تكمل حديثها قاطعها قائلًا:

-نعم. أعرف السبب الذي غير ملامح ابنتنا، إنه الحب يا سناء. الحب ولا شيء غيره. الحبّ ورطة لعينة.

-لا. ليس الحب وحده يا أيمن. سارة حامل.

***

{13}

- سألقنك درسًا لن تنساه. سأجعلك تتمنى لو أنك لم تولد من الأساس.

كانت هذه كلمات الوزير الأولى لمحمود فخرالدين عندما زاره في تلك الغرفة العطنة ذات مساء. سبه، ركله، سب والدته، الأميرة سعاد، لعن والده، فخر الدين أيوب وكل البسطاء في هذا العالم البائس. تعرّف محمود فخر الدين إلى صوت الوزير، على الرغم من أنه لم يسمعه سوى مرّة واحدة. تمييز الأصوات عمل سهل بالنسبة لعازف كمان. الآن بمقدوره أن يحزر وبسهولة سبب وجوده هنا. إنه الحب. بإمكان الحب أن يصحبنا إلى المتعة، الراحة، والطمأنينة، وفي أحيان كثيرة يصحبنا الحب إلى العذاب.

تحمّل محمود فخر الدين الضربات المؤلمة التي سددها له الوزير. كان يضربه بحقد شديد، ضغينة شديدة أشبه بما يحمله الأعداء تجاه بعضهم البعض، غلٍّ وعداوة جعلتا عمر كومبو اللعين يفطن لما آلت إليه الأمور من تعقيد. قال عمر كومبو محدثًا نفسه عندما رأى الوزير يركل محمود فخر الدين على بطنه بشراسة:

-يبدو أن الموضوع تخطى عتبة الحب.

سدّد الوزير المبجل ركلة قوية على عنق محمود فخر الدين، جعلته يتحشرج ألمًا، ويدفع كريات من الدم الأسود من فمه ومنخريه، ثم قال موجهًا أوامره لعمر كومبو ومن معه:

-خذوه. . سكت لبرهة ثم أتم: إلى سجن الموت.

يقع سجن الموت على مسافة بعيدة من مدينة الخرطوم، سُمي بسجن الموت لأن النزلاء الذي يسجنون فيه، يعودون إلى ذويهم بلا أرواح. موتى، غارقون في الصمت، والأبدية. يؤخذ السجين في أغلب الأحيان إلى هناك بلا تهمة، ولا محاكمة، هو أشبه بمكان للتصفية الجسدية، والانتقام.

بعد مرور أيام من تلك الحادثة، وترحيل محمود فخر الدين إلى سجن الموت، ليموت ويتعفن هناك قرأ الوزير المبجل خبرًا على إحدى الصحف اليومية «بنت الوزير. . في قبضة عازف كمان». هبّ واقفًا كأنما صعق بتيار كهربائي. من سرّب المشاكل العائلية إلى الخارج؟ من يريد العبث معه؟ كان واضح جدًا أن هناك شخصًا ما ينقل الاخبار إلى خارج البيت. شخص ما على دراية تامة بكل صغيرة وكبيرة، كل شاردة وواردة. جاسوس لعين يختبئ خلف أشجار الموز الكاذب، ويمد الصحف اليومية بالأخبار الطازجة.

أصبح خبر اختفاء عازف الكمان حديث الساعة. وراحت الصحف اليومية تختلق القصص، والأخبار حوله، وتضغط على الوزير وأسرته. ورغم تعليق صدور بعض الصحف لعدة أيام، إلا أن الأخبار الطازجة

كانت تظهر هنا وهناك. في المواصلات العامة، وفي السيارات الخاصة، في المكاتب، على مواقع التواصل الاجتماعي، وعلى الطرقات العامة حيث تكون الصحف مفروشة على الأرض. وبالتالي أصبح من الصعب جدًا على الوزير إخفاء الأمر. من المستحيل أن يصمد طويلًا في وجه الصحافة، التي راحت تحيك القصص والأساطير حول اختفاء محمود فخرالدين.

الخبر الكارثة كان ذاك الذي نُشر على وسائل التواصل الاجتماعي. حيث انتشرت صورة تجمع محمود فخر الدين وسارة. ومن هنا انكشفت كل الأوراق المغطاة للجميع. لم يكتفِ عمر كومبو بنشر الصور، وبعض التقارير على الانترنت فحسب بل باعها لأحد الصحافيين، والذي بدوره نشرها على نطاق واسع وهذا ما أغضب الوزير جدًا. كان الوزير يثق في عمر كومبو كثيرًا، يثق فيه لدرجة بعيدة حتّى أكثر من أفراد أسرته.

-من المستحيل العثور على أشخاص مخلصين في هذا العالم.

هذا ما قاله الوزير لنفسه، وهو يفكر في خيانة عمر كومبو له. الرجل الذي آمنه على نفسه، وماله، وأسرته، وبنته ها هو الآن يغدر به، ويبيع التقارير التي كان يكتبها، والصور التي التقطها للصحافة. أضحى الوزير كنعجة عاشت حياتها خائفة من الذئب، وفي الأخير أكلها الراعي.

بعد تفكير طويل استغرق يومان وأربعين سيجارة، وخمسة ألف كلمة بذيئة أرسل الوزير المبجل مجموعة من الرجال الأشداء على ظهر عربة بيضاء للامساك بعمر كومبو والتحقيق معه. لحظة القبض عليه ضربوه ضربًا مبرحًا كأنهم لا يعرفونه، وكما أوصاهم الوزير، ثم اقتادوه إلى منطقة

بعيدة، تمهيدًا لنقله إلى سجن الموت، وهناك أخبروه بأنه مات، مات منذ شهور، وأن من قتله رجل اسمه محمود فخر الدين أيوب.

في خضم هذه الأجواء الساخنة، والمضطربة ظهرت سيدة الأعمال المشهورة، التي كانت تطارد محمود فخر الدين من أجل مقطوعاته الموسيقية. أثارت سيدة الأعمال المعروفة بـ منى سعيد ضجّة إعلامية كبيرة حول اختفاء عازف الكمان. وهددّت باللجوء إلى المنظمات الدولية من أجله، فهو لم يمت، وإنما هو موجود في مكان ما في هذه المدينة، في سجن ما، محكمة ما، أو في إحدى المعتقلات البعيدة.

***

{14}

سارة الآن في شهرها الخامس من الحمل. طفلة صغيرة، شقّية، وعنيدة تتحرك في أحشائها. فشلت كل محاولات الأسرة في إسقاط حملها. رغم الاستعانة بأطباء مشهورين داخل وخارج السودان، وذلك لأن اكتشاف الحمل جاء متأخرًا. قال أحد الأطباء إن نسبة نجاح عملية شفط الحمل غير معروفة، ربما ستنجح العملية، وربما ستموت الأم أثناءها، أما في حال استخدام أقراص «سايتوتيك» فمن المتوقع أن تموت الأم، وهذا ما أذعر سناء كثيرًا، وأرعبها وجعلها تتراجع عن هذه الفكرة المجنونة. تخليت سارة ميتة، وكريات الدم المتخثرة تلتصق بين فخذيها، وأسفل مؤخرتها. أرعبتها فكرة فقدان ابنتها الوحيدة، فكرة أن تستيقظ صباحًا ولا تجدها في فناء البيت، أو على طاولة الغداء. لذلك من الأفضل البحث عن خطّة بديلة تحفظ ماء وجه الأسرة.

قالت الأم تحدث زوجها وهما على طاولة الغداء:

-من الأفضل لنا ولسارة الآن، وكي نتجنب الأسئلة المزعجة التي قد يطرحها الأقرباء، وحتى نخفي هذا العار، وندفنه قليلًا، الأفضل أن تسافر سارة إلى الخارج، تضع مولودتها هناك ثم تعود بعد سنة أو سنتين

أو لتعيش هناك إلى الأبد.

رحّب الوزير المبجل بالفكرة، خاصة في مقطعها الأخير. تمنّى في أعماقه أن تختفي سارة إلى الأبد، أن يصحو صباحًا على صوت تلاشيها مثلما يتلاشى الهواء من داخل البالون المثقوب. كان يشعر بأن ما يحدث معه امتحان رباني، أو اختبار صعب تدّبره الحياة، لعبة معقدة تصنعها الأيام، مشاكسات عنيدة تخلقها الظروف، مؤامرة لعينة يحيكها أعداؤه، أو ربما في أسوء الأحوال نتيجة منطقية لأفعاله الشريرة؛ فالظلم الذي يمارسه والفساد الأخلاقي، والمالي اللذان يحترفهماكفيلان بتدمير حياته، وجلب العار إلى فناء منزله.

سافرت سارة إلى القاهرة في صباح يوم كئيب. ودّعت غرفتها، حديقتها الخلفية، مكتبتها الصغيرة العامرة بالكتب. من بين الرفوف أخرجت رواية فلتغفري، احتضنتها بأسى وراحت تتذكر ما حدث ذلك اليوم. عندما دخل محمود فخر الدين إلى غرفتها. لا زالت رائحته المميزة عالقة بين دفّات الكتاب. أحسّت به يكلمها بين السطور، يهمِس في أذنها كلمات دافئة، رأت عيناه الذكيتان وكمانه المجنون، وسمعت ألحانه العذبة تتسلل إليها من مكان ما داخل الغرفة.

حتى الآن هي لا تعرف عن مكان اختفائه شيئًا، لكنها تعرف حقّ المعرفة أن والدها مسئول عن هذا الاختفاء، مسئول عن اغتيال حلمها، وتدمير حياتها. كانت تدرك جيدًا أن والدها غارق ومتورّط حتى أذنيه في غياب حبيبها. رغم المحاولات المستميتة، والمتكررة في معرفة مكانه،

ورغم الاتصالات الكثيرة التي تمت بينها وبين أمجد فلسفة من جهّة وسيدة الأعمال المشهورة من جهة أخرى، لم يتم التعرّف على مكان وجوده حتى اللحظة. بدا كما لو إن الأرض انشقت وابتلعته.

قبل أن تغادر غرفتها صوب المطار، غادرت سارة حياتها الطبيعية. أصبحت تعيش يومها مثل الفزاعات، حياة كئيبة، وبائسة ببطن مكورة ونظرات ازدراء من والديها ومعارفها. لم تنزعج من انتفاخ بطنها، رغم عدم تخطيطها الدخول في مغامرات كهذه، هي لم تفكر يومًا في إنجاب طفلة، حدث الأمر مصادفة ذاك المساء. حدث كأنه أمر مخطط له منذ فترة طويلة. فمن كان يظن أن ذاك الالتصاق الجسدي غير المقصود، والمبارك من قبل آلهة الكمان سينتج عنه طفلة؟ لا أحد غير أمجد فلسفة. . لا أحد.

رحلت سارة دون أن تودِّع صديقتها ليلى. دون أن تسقي أصص السنسفيريا في شرفتها، رحلت دون أن تلتقط صورة وداع أخيرة مع السلحفاة. سافرت دون أن ترسم قبلة صغيرة على جدران غرفتها، سافرت ببطن منتفخة، وجسد متعب، وثقيل. سافرت لترمّم بقاياها. في الطائرة، وقبل الإقلاع من مطار الخرطوم، وحينما بدأت الطائرة بالجري على مدرج الإقلاع أخذت سارة زفرة عميقة، تنفست الصُّعداء، وحدثت حبيبها الغائب منذ شهور:

-سامحني.

***

{15}

الليلة الأولى في سجن الموت كانت مرعبة جدًا. كانت أشبه بكابوس مخيف. آهات متواصلة، ونشيج متقطِّع لنزلاء يتألمون، وأصوات لكمٍ وضرب وظلام. الزنزانة كانت فارغة إلا من محمود فخر الدين، وعثمان حركة، وهو سياسي ومناضل وشاعر ثوري. ظلّ يعارض النظام الحاكم لسنوات طويلة. دخل جميع المعتقلات السياسية، وبيوت الأشباح، وأوكار التعذيب. وانتهى به الحال في سجن الموت.

يقع سجن الموت على مساحة ألفي متر مربع، خلف التلال الجبلية البعيدة من مدينة الخرطوم. بُني السجن في الأساس لاستقبال المعارضين، والمجرمين. لكنه سرعان ما تحول إلى مكان لتصفية الحسابات. يستخدمه الأشخاص النافذين في الحكومة، من وزراء، وولاة، وضباط جيش، لتصفية حساباتهم الشخصية. السجن محاطٌ من كل الاتجاهات بجدران عالية يبلغ طولها ثلاثة أمتار ونصف، وعليها ثُبِّتت أسلاك شائكة، وقوائم حديدية حادة. من الداخل، الزنزانات ملتصقة إلى بعضها، وهناك زنزانات خاصة للحبس

الانفرادي، وغرفة إعدام تتوسط السجن.

لحظة دخول محمود فخر الدين إلى الزنزانة، كان الظلام الحالك يخيّم على الأنحاء. هو في الحقيقة لم يدخل إلى الزنزانة بإرادته وإنما سيق إليها بالقوة. لم يكن ليقاوم بطش الجلادين، الذين رموه إلى داخل زنزانة الفلاسفة الأغبياء المحكوم عليهم بالإعدام بطريقة مهينة كما تُرمى أكياس القُمامة. وقتذاك كان عثمان حركة يتكئ على زاويته المفضلة في الزنزانة. رغم الظلام الحالك كانت أسنانه تلمع وتبرق كأنها مجموعة أنجم هاربة في سقف سماء غائمة. أول ما رآه محمود فخر الدين داخل الزنزانة هو البريق الخافت المنبعث من أسنان عثمان حركة الذي عاجله بالقول:

-مرحبًا بك يا رفيق.

لم ينبث محمود فخر الدين ببنت شفة. تمدّد على الأرضية الإسمنتية، أغمض عينيه المتعبتين، أخرج زفرة اطمئنان مؤقتة، وغاص في تفكير عميق. في هذه اللحظة بالذات حامت في خيالاته صورة والدته، ووالده، وصديقه أمجد فلسفة، وحبيبته سارة التي سبّبت له كل هذه المعاناة، وكمانه المجنون، ومقطوعاته العجيبة. انقلب على شقه الأيمن، توسد يده اليمنى، ووضع اليسرى بين ركبتيه. الآن يمكنه التفكير في مصيره. هذه السكينة التي ينعم بها، لم يجد إليها طريقًا منذ ذاك المساء البعيد.

تدخّل عثمان حركة قاطعًا عليه سكينته:

-الناس هنا لا يتركونك لحالك. ما اسمك يا رفيقي؟ بصوت مبحوح. . أجاب:

-محمود فخر الدين أيوب. سكت هُنيهة، ثم أردف: عازف كمان.

-يفترض بك أن تكون في المسرح الآن ليس هنا. سكت لبرهة ثم واصل: تبدو عليك الطيبة، والهدوء، لكن دعني أخبرك أمرًا. . في هذا المكان كل شيء مدعاة للصخب والفوضى. هيا أنزع عنك ذاك الرجل المتعب، المنهزم وقم لتوثق أولى أيامك في السجن. صمت لبرهة. . ثم أردف: أنا متأكد أنك ستشكرني كثيرًا في يوم ما. ومد إليه دفترًا مهترئًا، وقلمً رصاصٍ مكسورًا.

سكت محمود فخر الدين طويلًا. كان يريد أن يرتاح، أن يفكر قليلًا، أن يستوعب هذا المكان، هذا الظلام، هذا الصوت الذي يخاطبه. لم يكتفِ عثمان حركة بمد الدفتر والقلم، وإنما استمر في التحدث بلا توقف:

-هنا في هذا المكان، لا يسمحون لك بشيء. . عدا ورقة وقلم. لا أعرف لماذا؟ ربما يمنعون عنك الطعام والشراب، يحرمونك من التبول والتغوط، لكنهم لا يمنعونك عن الكتابة. أمرهم غريب.

-هيا قم يا رفيقي واكتب ما شئت. ثم تحرك صوب محمود فخر الدين قائلًا له:

-أنصحك بأن تكتب شيئًا، قبل أن يضعوا الأصفاد على رسغيك وعقلك.

هبّ محمود فخر الدين مذعورًا، جلس على إليتيه، بحث بيده في الظلام، عن دفتر وقلم، أمسك بهما. . ثم سأل عثمان حركة:

-كيف أكتب والظلام يحجب عني رؤية الورق؟

-مثلما يكتب الكفيف؛ يتحسس الورق بيده ويكتب.

تحسس محمود فخر الدين قلم الرصاص، والدفتر. ثم كتب:

«لا أعرف سبب مجيئي إلى هنا، كل الذي أعرفه أني كنت في طريقي إلى صديقي أمجد فلسفة، لنتناقش حول نظريته الأخيرة عن الجنس، وانتهى بي الحال في مكان لا أعرفه».

***

{16}

في الصباح الباكر اختفى الظلام الحالك، وتوارى خلف الأفق البعيد. صار بالإمكان رؤية الزنزانة بوضوح تام، رؤية مساحتها، وشكلها من الداخل. بدت الزنزانة أشبه بغرفة مربّعة الشكل، لها نافذة واحدة أعلى الجدار الذي يتكئ عليه عثمان حركة دائمًا. للنافذة قضبان حديدية صلبة، ملتصقة مع بعضها البعض بصورة دقيقة تُشبه الشِّباك، على الأرجح أن المسافة التي بين القضبان لا تسمح بمرور سمكة؛لذلك كانت هناك قصاصات ورق كثيرة، وذكريات حزينة ملتصقة بالقضبان. هي ذكريات قديمة لنزلاء مرّوا من هنا، لكنهم سطّروا معاناتهم، أحلامهم، طموحاتهم، على تلك الأوراق وقذفوها تجاه النافذة.

استيقظ محمود فخر الدين على صوت عثمان حركة الذي كان يغني بطريقة مجنونة، لم يكن صوته جميلًا لكنه كان مميزًا، ويجذب الانتباه. كان يدندن بكلمات شجيات، تُحرك المشاعر الراكدة:

أيها الجلاد أسمعني. . أنا لا أخاف الضرب. .

جسدي وهبته لك طوعًا. . فأفعل ما تحب. .

أضربني. . أركلني. . أقبرني. . ثم أشتمني وسب. .

لكني لا أخافك. . لا أهابك. . لا أهاب الضرب. .

ولما فتح محمود فخر الدين عيناه، وتفرّس قليلًا في ملامح هذا المغني، قدّر عُمره بثمانية وثلاثين عامًا، أو ربما أكبر. ففي الزنزانة يبدو السجين أكبر عمرًا من عمره الحقيقي. عيناه حمراوان، ملامحه جادة، شفتاه يابستين، يكسو جسده الشعر. من يراه لأول مرّة يظن أنه خروف استرالي محجوز في حظيرة. على جبهته ارتسمت خطوط متعرجة تنتهي إلى داخل صدغيه. تحرك عثمان حركة من مكانه، فقرأ محمود فخر الدين عبارة مكتوبة على الجدار:

«لن أتوب أبدًا».

سأل محمود فخر الدين بفضول:

-لن تتوب عن ماذا؟

-لن أتوب أبدًا. . وسكت.

من أعلى النافذة سقطت ورقتان مطويتان بشكل مُحكم. قال عثمان حركة:

-عادة لا تسقط الأوراق التي كتبها النزلاء، كما أنك لا تستطيع الوصول إليها، يبدو أن تيار الهواء قويًا اليوم، رغم وجود عشرات الزنزانات من حولنا، والتي تمنع اندفاع الهواء. ابتسم الاثنان، والتقطا الورقتين بهدوء. كل منهما أخذ ورقة. قرأ عثمان حركة:

-لن أتوب عن السرقة.

أصدر ضحكة خفيفة. ثم قال مازحًا: يبدو أن من كتبها لص عنيد.

أكمل وابتسامة جميلة تطل من شفتيه:

-إذ لم تخونني الذاكرة هذه الورقة للص محترف يُدعي محمد علي، وهو متخصص في سرقة السيارات. سرق أكثر من ألف سيارة جيب، وبوكس. كان يبيعها لتجار البشر في منطقة البطانة، وكسلا. سرق سيارة أحد الوُلاة، تم القبض عليه، ثم جيء به إلى هنا، مكثَ معنا سنتين، والآن لا أعرف عنه شيئًا. في أغلب الأحوال يكون قد أُعدِم. الإعدام هنا أمر عادي. قد تقبع هنا لسنوات دون أن يسألك أحد، لكن! سكت هنينة، وقال: دعك من هذه الأشياء وأقرأ لنا ما بحوزتك.

-لن أتوب عن القتل. تأمّل محمود فخر الدين الكلمات الأربعة بعمق. وقال محاولًا التنبؤ بهوية الكاتب:

-دعني أحزر. يبدو أن من كتب هذه الورقة قاتل فترة. قاطعه عثمان حركة:

-لا لا لا. هذه الورقة كتبها آدم اسحاق، كان معارضًا، يقود جماعة مسلحة. قتَلتْ جماعته سرّية كاملة من الجيش في غرب البلاد، نصبت لهم كمينًا مُحكمًا، لم ينجَ منهم أحد. سكت لبرهة، ثم أكمل: تم شنقه قبل يومين.

-هل تاب عن القتل؟

-لا أعرف.

صمتٌ رهيب ساد بينهما، تدخل محمود فخر الدين كاسرًا هذا الصمت عن طريق طرح سؤاله القديم:

-أخبرني، لن تتوب عن ماذا؟

-لن أتوب عن معارضة النظام الحاكم. وأنت.

-أنا. . وسكت.

في الزنزانة. . كل الذين قرروا عدم التوبة، كانت لديهم رغبة ينوون قضاءها، ذنب صغير يريدون ارتكابه، جريمة، إثم، مغامرة، أو ثأر قديم يريدون الأخذ به. لكن محمود فخر الدين لم يكن لديه ما يحفزه لعدم التوبة، لم يكن لديه ما يحفزه للتمادي في الخطايا، والآثام. حياته بسيطة، لا تتطلب المزيد من التحدي، والإصرار.

أخذ الدفتر الملقى على أرضية الزنزانة، اقتلع الورقة التي كتبها بالأمس، قرأ ما كتبه بصمت. لا حظ أن النقاط موضوعة على الحروف بشكل فوضوي، وذلك نسبة لأنه كتب الورقة في الظلام. أخذ قلم الرصاص المكسور مجددًا، وكتب بخط واضح أسفل تلك الكلمات:

-لن أتوب عن الحب.

***

{17}

داخل الزنزانة تتكون الصداقات بسرعة. شيء ما غامض وفريد يجمع السجناء بلمح البصر. يقّربهم عن بعضهم البعض. المساحة الضّيقة تُجبر السجين كي يبحث عن صديق له، أحلام الحرية تحتاج إلى رفيق، الجراحات العظيمة والانكسارات التي يعيشها السجين لا يمكنه التغلب عليها وحده، لابد من اللجوء إلى رفيق يشاركه الحلم، والأمل. وهناك بالداخل تبدأ العلاقة بالتعرف على الاسم، الجريمة، أو السبب من دخول السجن، وتنتهي بحلم العودة للديار.

لم يمر يومان حتى أضحى عثمان حركة، ومحمود فخر الدين صديقان حميمان. أفكارهما متقاربة، أشياء كثيرة كانت تجمعها. حب محمود فخر الدين اللامتناهي للعزف على الكمان، واهتمام عثمان حركة بالموسيقى، والفن، ورغبتهما المشتركة في الخروج من هذه الزنزانة اللعينة إلى الأبد. تعرّفا على بعضهما البعض بشكل عميق، وسرد كل منهما قصة حياته للآخر.

كانا يفطران سويًا في منطقة تجمُّع السجناء. وهي منطقة خالية، وملساء تتوسط سجن الموت، بالقرب من غرفة الإعدام. وهناك تعرف

محمود فخر الدين على أصدقاء جدد. سامي عبدالله تاجر المخدرات والعُملة، وأحمد كبّة مزور الشيكات، ولاعب الشطرنج المحترف حريقة، ومناضلين صغار، وآخرين بلا ذنب مثله تمامًا.

قبل الإفطار بلحظات، والذي يكون دائمًا على العاشرة صباحًا، يأتي أحد الحراس ليفتح باب الزنزانة، زنزانة الفلاسفة الأغبياء. يوميًا يفتح باب الزنزانة حارس جديد. يفتحها بعنف، وبشهية مفتوحة للضرب واللكم، والسب اذا لم يزعن أحدهما للأوامر. مخالفة الأوامر تعني التعذيب، والجلد، والربط من القدمين، هذا في أحسن الأحوال، وفي ظروف أخرى يتم وضع الأصفاد التي تزن خمسين كيلو غرامًا على أطراف ورقبة من يخالف الأوامر. لذلك كان محمود فخر الدين ينفذ الأوامر المطلوبة منه بالحرف الواحد، يقولون له: أصمت فيصمت، أجلس فيجلس، توقف فيتوقف، ضع يديك على رأسك فيضعهما. وكذلك عثمان حركة، الذي نصح محمود فخر الدين بضرورة الانصياع والانقياد التام لأوامر الجلادين الصغار حتى لا يضعوا الأصفاد على رسغيه.

لم يكن طعام الفطور شهيًا، العدس الذي يتناوله السجناء يوميًا على الفطور والغداء ينقصه الملح، والتوابل، طعمه ماسخ مثل طعم الحياة داخل الزنزانة تمامًا. لكنه يحفظ الجسد من الفناء، ويُسكت صافرات البطن من الصراخ. في منطقة تجمع السجناء المخصصة للأكل لا مكان للأحاديث الجانبية، لا مجال لإحداث جلبة، أو ضجة. ورغم تحذيرات

الحُرّاس إلا أن أصوات مضغ الطعام، وهمهمات خفيفة كانت تهرب إلى مسامعهم فيحذرون، ويُرهبون السجناء.

-اصمتوا. . وإلا. . . . فيصمت الجميع.

في المساء يخرج أغلب السجناء الذين لم يتم تحديد جريمتهم بعد، إلى ساحة النشاط الخلفية للسجن. وهناك يمكن تكوين صداقات جديدة، ولعب كرة القدم، الشطرنج، لعبة الصندوق، وسرد قصص الحب والغرام. ورغم أن السجن كان بائسًا، وكئيبًا، ولا يمكن تحمله، إلا أن هذه الأنشطة كانت تخفف بشكل كبير من عبء الاقامة فيه.

حينما أنشئ سجن الموت، لم يكن به في بادئ الأمر سوى عشرة زنازين، وحمام واحد. لم يكن به مكان للترفيه والتسلية. ولا حتى منطقة لتناول الطعام، حيث كان المساجين يتناولون طعامهم داخل زنزاناتهم. لكن مع زيادة عدد السجناء، والمضايقين للوزراء، والمناضلين ضد الحكومة، تم بناء عشرات الزنزانات، وغرفة إعدام، ومنطقة لتناول الطعام، ومنطقة لممارسة النشاطات الثقافية، والاجتماعية، والرياضية.

بمساعدة من المناضل عثمان حركة، تمكن محمود فخر الدين من الانخراط بسرعة في الأنشطة الثقافية للسجن، تعرف على أغلب السجناء في فترة وجيزة. أصبح يعرف الوقت المناسب للنوم، الوقت المناسب للذهاب إلى الحمام، والوقت المناسب للتحدث مع الرفقاء. ليست هناك أي مشكلة تعيقه عن التكيف الآن، لكنه كان سيتكيف بسرعة شديدة لو أنه تحصّل على كمان كلاسيكي، وصديق رائع مثل أمجد فلسفة يشاركه

الظلم، والمعاناة. كان سيشعر أنه انتقل من غرفة إلى أخرى داخل بيته، وليس من فضاء واسع إلى جحر فأر صغير.

زارته خيالاته مجددًا، الحنين يقتله، وحبّ سارة زاد عن حدّه. حتى في الزنزانة يفكر بها، أين هي الآن؟ ماذا حدث معها؟ لم تكن لديه أدنى فكرة عما آلت إليه الأمور من تعقيد، وأن سارة وضعت مولودة جميلة اسمها فرح في إحدى مستشفيات القاهرة. كان يظن أن والدها يريد إبعاده عنها فقط، ونسي تلك الليلة المجنونة التي انتجت حلمًا صغيرًا في أحشائها. هو لم يكن ليتخيل أنه سيمكث بين جدران هذه الزنزانة سبعة سنوات كاملة، من أجل قبلة صغيرة، ولحظة عابرة قضاها مع فتاة.

الأيام تمر بسرعة. ذاك الصباح عندما بدأ الجلاد بفتح باب الزنزانة، لا ليمنحهما بضع دقائق للذهاب إلى الحمام، وإنما لأن ضيفًا جديدًا في طريقه إليهما، فطن محمود فخر الدين وقتها إلى أنه على مشارف الدخول في شهره الخامس من الحبس. قال مُحدّثًا صديقه عثمان حركة:

-اللعنة. الأيام تمر بسرعة.

ابتسم عثمان حركة كأنه لم يبتسم من قبل. قال وعلى فمه نصف ابتسامة:

-ستستيقظ ذات صباح، وتكتشف أنك أمضيت خمس سنوات بين هذه الجدران اللعينة دون أن تشعر.

في تلك الأثناء دخل السجّان إلى الزنزانة، كان يمسك برجل من ياقته ويهزه مثل شجرة مثمرة، كان الرجل يتمايل مع كل هزة دون أن يرمي

ثماره على الأرض. ولما انتهى بالرجل حبيسًا بين القضبان، انزوى على أحد الأركان، وهناك عرفه محمود فخر الدين على الفور.

بعد إتمام مهمة زج الرجل في الزنزانة أقفل السجان عائدًا إلى غرفة الاستراحة.

دون أيّ مقدمات بادر الضيف الجديد بالقول:

-اسمي عمر كومبو. شرطي وكاتب تقارير. ثم احتضن نفسه.

ملامحه تدل على أنه مُتعب جدًا، متعبٌ من الضرب واللكم. جسده يضج بالكدمات، لذلك تركاه لحاله.

عاد السّجان مجددًا، فتح باب الزنزانة، أصدر الباب صريرًا مزعجًا، إنه وقت الفطور. استعد محمود فخر الدين، وعثمان حركة للذهاب، أما عمر كومبو فلم يرغب في تناول الطعام. تحرك عثمان حركة من الزاوية التي يتكئ عليها فظهرت تلك العبارة من خلفه «لن أتوب أبدًا»، وقبل أن يغادرا الزنزانة برفقة السجّان، توقف محمود فخر الدين عند الباب، أمسك بالقضبان الحديدية، وقال لعمر كومبو:

-خذ ذاك الدفتر، اقتلع منه ورقه. حينما نعود نريد أن نعرف ما هو الشيء الذي لن تتوب عنه أبدًا.

ومضيا. .

***

{18}

-لن أتوب عن كتابة التقارير.

كتب عمر كومبو هذه الكلمات. اقتلع الورقة، وضعها في جيبه. وحينما عاد الاثنان لم يخبرهما بما كتب. اتَّكأ على الجدار، يخنقه الأسى، والألم.

هو الوحيد الذي يعرف سبب وجود محمود فخر الدين الحقيقي هنا، بين هذه القضبان. لكنه لم يكن مستعدًا للدخول في رحلة سرد، وقص طويلة تكلفه ما عنده من طاقة. تظاهر بأنه لا يعرف شيئًا. رجل مسكين زُجَّ به في السجن بلا تهمة. مثّلَ الدور باحترافية، وأجاده ببراعة. في بعض الأحيان يستيقظ ضميره، يؤنبه كثيرًا، لكنه لا يكترث، وعندما يسأله محمود فخر الدين عن سبب وجوده هنا، يختلق القصص الوهمية. كل يوم يخبرهما قصة جديدة، تارة يقول إنه سرّب تقارير قسم شرطة «سوق ليبيا» الذي كان يعمل به سابقًا ونقلها لوسائل التواصل الاجتماعي، وفضح مدير القسم، وكشف الفساد الأخلاقي، والمالي له، وتارة أخرى يسرد قصة مختلفة، يقول فيها إنه جاسوس متخفّي اسمه الحقيقي عمار السيّد، ويعمل لصالح منظمة إرهابية خارج السودان.

في كل الأحوال كان يُظهر نفسه على أنه إنسان وضيع، وحقير. اثبت

وضاعته وحقارته داخل الزنزانة أيضًا. على الرغم من أنه أصبح صديقًا لمحمود فخر الدين إلا أنه لم يخبره بالحقيقة حتى الآن. لم يخبره أن الوزير اتهمه في جريمة قتل، قتله هو بالذات، لم يخبره بأن سارة حملت منه، بل وأنجبت طفلة صغيرة. كان يخفي كل الحقيقة بين جوانحه، يخفيها كما لو أن كشفها سيحيل هذا العالم إلى رماد. حتى الآن استطاع عمر كومبو أن يخفي الحقيقة لشهرين كاملين، وسيخفيها لمدة طويلة.

لو كان محمود فخر الدين يرغب بالثأر من عمر كومبو لفعل؛ هو لم ينسَ التعذيب الذي تعرض له على يدي عمر كومبو ومجموعته، لم ينسَ شلالات البول التي كانت تتدفق على رأسه. ما زال خرير البول المالح يطن في أذنيه، لكنه كان رجل مسامحًا، وسريعَ الغفران. هو مثل الأم التي تغضب من طفلتها الصغيرة، وحينما تبكي الطفلة تحتضنها الأم بحنان، ترضعها، وتسكتها. كما أن أي حركة غير معتادة داخل الزنزانة، كأن يتعارك الاثنان مثلًا، أو يتجادلان، كانت ستكلفها الراحة التي ينعمان بها الآن، وتحل عليهما لعنة الحبس الانفرادي. من الأفضل لهما أن يعيشا بسلام. على محمود فخر الدين أن ينسى ما فعله به عمر كومبو، وعلى عمر كومبو ألا يكرر فعلته مجددًا، بل ويندم أشد الندم.

زنزانة الفلاسفة الأغبياء بها ثلاثة سجناء الآن، عازف كمان، ومناضل، وكاتب تقارير. لم يحدث في تاريخها أن سُجنَ بها عازف كمان. كل من مروا بها لا يعرفون شيئًا عن العزف، لا يدركون أهمية تلك الآلة الصغيرة التي توضع على الكتف، المتعة التي تتدفق منها، والألحان الرائعة، والشجية

تتطاير من أوتارها. ولما يأسوا ثلاثتهم من الاتكاء والاستلقاء على أرضية الزنزانة اقترح محمود فخر الدين برنامجًا يوميًا. هو سيقوم بإعطائهما دروسًا يومية عن الكمان، أجزائه، أوتاره، وطريقة العزف، وبالمقابل على كل واحد منهما أن يشارك تجربته في الحياة. ماذا يمتهن؟ ماذا يعرف؟ وكيف يمكن الاستفادة مما يعرفه.

ذاك الصباح وحينما بدأ محمود فخر الدين درسه الأول عن أجزاء الكمان، رفع قلم الرصاص المكسور، وقال:

-هذا يشبه القوس. قوس الكمان.

سخر الاثنان منه، وضحكا باستفزاز، قال عمر كومبو:

-لتقدم درسًا عن الكمان، ينغي أن يكون هناك ثمة كمان على كتفك. وحرك ساعده على كتفه، كمن يريد العزف. رد محمود فخر الدين بانزعاج.

-عندما يحطم أحدهم كمانك على رأسك، وقتها. . وسكت.

انتظر الاثنان إكمال الجملة، لكنه لم يكملها. بل وأنهى الدرس على الفور.

أدرك عثمان حركة أن هناك لغزًا ما يحوم بين هذه الجدران، طلسمة معقدة يصعب فكها. صراع قديم، ومؤجل بين هذين الرجلين. حاول تلطيف الأجواء وذلك بإلقاء قصيدة ثورية طويلة تقول في مطلعها:

هذا النيل يجري في دمي. .

هذا العشب يجعلني أقاوم. .

***

{19}

عاش أمجد فلسفة أيامًا عصيبة منذ اختفاء صديقه ذاك المساء. إلى الآن مرت ثمانية أشهر دون معرفة أيّ شيء عنه. بيته يسكنه الفراغ، العناكب بنَت بيوتها على الزوايا، وكمانه الكلاسيكي الذي اشترته له سارة من القاهرة يقتله الوحدة. يقرأ أمجد فلسفة الورقة الصغيرة التي الصقتها سارة على الكمان: تبّا لقد وقعت في الحب. فيقول: تبا للحب. . تبا للحب. الغرفة أضحت موحِشة، وبائسة، وحزينة ككهف قديم. صورة الأميرة سعاد المعلقة على الجدار امتلأت بذرات الغبار، كان البيت يحتضر بغيابه.

في المساءات الحزينة والكئيبة يُحدّث أمجد فلسفة نفسه: من المستحيل أن يختفي رجل بهذه الطريقة، في لمح البصر. الناس لا يختفون هكذا؛دائمًا هناك منطق وراء كل اختفاء، هناك طرف خيط لحل كل عُقدة، هناك طريق سالكة للخروج من كل متاهة. قوس قزح عندما يتلاشى بالإمكان رؤية لحظة تلاشي الألوان، حتى الدخان الأسود الكثيف يمكننا رؤية ذراته وهي تعانق الأفق. من يظن أني لن أجد صديقي فهو واهم كبير، من يظن بأن هذه اللعبة ستستمر طويلًا فهو خاسر. ويردد:

لقد اختفى صديقي كما تختفي التنهيدة في صدر الفتاة!
كما لو كان شرارة في ورقة محترقة أومضت للحظة ثم اختفت. . .
تلاشى كالفقاعة المنفجرة. .
كالحلم دون أن أعرف كيف ولماذا اختفى!

وقبل أن ينام أمجد فلسفة، يسرد تفاصيل نظريته عن الجنس للكمان. يحدثه كأنما يحدث محمود فخر الدين بالضبط: أتعرف أيها الكمان، لا يوجد شيء يسمى الحب. الجنس هو كل شيء. الجنس هو العباءة الكبيرة التي تغطي الحب. لكن في الواقع يبدو أن الحب هو الذي يغطي الجنس. الأمر مثل العلاقة بين السماء والفراغ. لو سألتك أيها الكمان المسكين من يغطي الآخر؟ ستجيبني أن السماء تغطي كل شيء، ولكنك تدرك أن الفراغ لا يمكن تغطيته. السماء تظهر على أنها العباءة، وهي في الأساس ليست سوى وهم. وهكذا العلاقة بين الحب والجنس. الحب وهم يا صديقي.

سيدة الاعمال المشهورة منى سعيد ساعدت أمجد فلسفة كثيرًا. وعملا سويًا للبحث عن محمود فخر الدين لكن بلا طائل. كانت تتصل به يوميًا وتسأله عن آخر الأخبار. كانت الإجابة واحدة، مكرورة، ومملة: لا شيء. هل مات محمود فخر الدين؟ هل قُتل؟ هل اختطفته المافيا؟ لم يتجرأ أحد على الإجابة عن هذه الأسئلة. بقي اختفاؤه كاللغز المحير.

في إحدى لقاءاتها الصحيفة عن أعمالها وشركاتها، والانجازات التي حققتها، أجابت منى سعيد، سيدة الأعمال المشهورة، حينما سُئلت عن الشيء الذي يشغل بالها كثيرًا، أجابت بثقة: اختفاء محمود فخر الدين.

قالت إنها تفكر فيه كثيرًا، لا زالت تسمع ألحان كمانه تحلّق حولها، وتمنحها مزيدًا من الراحة والطمأنينة والدفء. وهي مستعدة لدفع نصف ثروتها لمن يدلها عليه. لمن يخبرها بحرف واحد عنه. كان تصريحها هذا بمثابة كرت ضغط على الوزير، وراح الحالمون بالحصول على تلك الثروة يبحثون عنه بجد. أصبح موضوع المكافأة التي خصصتها منى سعيد حديث الساعة، وكتبت الصحف على صفحاتها الأولى: مائة مليون جنيه من أجل عازف كمان.

هو لم يكن يقدر بثمن؛ الرجل الذي يحرك المياه الراكدة برنة وتر لا يمكن شراؤه بالمال، كل الأموال التي ستدفعها منى سعيد من أجله لا تساوي شيء مقارنة بمعزوفة الأميرة سعاد رقم 1176. كانت تراهن عليه، على مقطوعاته الرائعة لذلك كانت مستعدة للتخلي عن نصف ثروتها.

***

{20}

انجبت سارة طفلة جميلة أسمتها فرح. وهي اسم مقطوعة حب لمحمود فخر الدين ألّفها من أجلها، أو من أجل هذه اللحظة بالذات. تمت عملية الولادة في مستشفى شجرة الدُّر بالقاهرة. لم يكن هناك سوى والدتها، الدكتور الذي أجرى العملية، ولفيف من الممرضات. كادت سارة أن تموت. الأمور لم تجرِ على شكل مثالي، رغم أنها حُضِّرت للعملية بشكل جيد، لكن شيئًا ما كان يريد إزهاق روحها، لعنة ما كانت تحوم في سماء غرفة العمليات. أثناء العملية توقف قلبها عن الضرب مرتين، لكنها عادت إلى الحياة بأعجوبة، وانجبت فرح.

فتحت سارة عيناها على وجه طفلتها الصغيرة، احتضنتها بحنان. وراحت تفكر كيف تُقابل والدتها والناس؟ العار يحوم في كل مكان حولها، تراه على ستائر الغرفة، على السرير الذي ترقد عليه، على النافذة، على المحلول الوريدي، الإبرة المغروزة في ساعدها. كانت ترى المحلول الوريدي المعلق على المشجب يمر عبر الأنبوب البلاستيكي الطويل، ويتسلل إلى داخلها نقطة. . نقطة، تمنّت لو يكون هذا المحلول سُمًّا قاتلًا، يتسلل إلى شرايينها، ويختلط مع دمها فتموت ولكن!

من فتاة مدللة تفعل ما تريد وتطلب ما تريد، تحولت سارة إلى أمٍّ مكروهة، أمٍّ لا يريدها أحد. الأشياء تفقد قيمتها مع الزمن، الأخطاء الصغيرة تحيل الحياة إلى جحيم، الأبناء الذين يجلبون الفضيحة للأسرة يفقدون قيمتهم. وسارة فقدت قيمتها لدى والديها. لاحظت سارة نظرات عدم ارتياح، وانزعاج، وشفقة، وأحاسيس أخرى مضطربة تكسو ملامح والدتها. فهي لم تُقبِّل الطفلة الصغيرة، وحينما حملتها على ذراعيها، كانت تشعر بالقرف. كأنها تقول: هذا الجسد الصغير ليس منّا، هذه البنت لا تشبهنا، هذه القطعة المنبوذة يجب أن تُرمى بعيدًا. بدت كما لو أنها سترميها على حاوية القمامة الصغيرة أسفل السرير.

ماذا ستقول سارة لوالدتها؟ عن ماذا ستتكلمان؟ هذه الطفلة الصغيرة التي ترقد إلى جوار والدتها جعلت الكلام بينهما صعبًا، تعقدت الأمور كثيرًا. أصبح من الصعب الآن الدخول في أي محادثة، حوار، نقاش، أو حتى اللجوء إلى اقتراحاتهما القديمة، الكلمات ترفض أن تُقال في موقف كهذا.

بعد نقل سارة من غرفة العناية المكثفة إلى غرفة المرضى رقم C101 لأن حالتها أصبحت مستقرة، اضطرت سناء أن تقول لها: حمد الله على سلامتك. قالتها بطريقة باهتة، كالذي يؤدي واجبًا. واجب الأمومة يُحتّم عليها أن تقف إلى جوار ابنتها في هذا التوقيت بالذات، الانسحاب يعني أنها أمٌّ غير جيدة. ورغم وقوفها المهزوز وكلماتها الفارغة من أيّ معنى وأيّ إحساس لكنها وقفت، وهذا هو المهم.

في المستشفى وقبل الانتقال إلى الشقة التي ستقيم فيها سارة، والتي تتبع

ملكيتها لوالدها، ألحت الأم باحتمالية بقاء سارة في القاهرة لفترة طويلة. ولما انتقلتا سويا إلى الشقة في منطقة الزمالك بالقاهرة، واجهت سناء ابنتها بالحقيقة:

-من الأفضل للجميع أن تبقي هنا. وأردفت: مركز والدك حساس ولا يتحمل هذا النوع من المغامرات. الأفضل لنا ولك أن نداري هذه الطفلة، أن نخبأها، وبعد أن تهدأ الأجواء وينسى معارفنا هذه القصة، وتنسى الصحافة قصتك مع عازف الكمان، وتجد شيئًا آخر يلهيها، في ذلك الوقت بالذات سنكون بانتظارك في المطار.

من خلال طريقتها في الكلام، وتوقفها المقصود في عبارات معينة مثل: «ينسى معارفنا هذه القصة» وتكرارها مرتين أو أكثر، كانت تود أن تقول إن رجوعك إلى السودان أصبح صعبًا ومعقدًا بل ومستحيلًا. ببساطة لأن الناس لا ينسون الفضيحة، العار لا يمكن ردمه ودفنه بالمرة، هو يخمد قليلًا، يأخذ استراحة قصيرة، أشبه باستراحة المحاربين ثم يعود بقوة.

على سارة الآن تحمُّل نتيجة أفعالها، عليها الآن أن تعيش على الهامش في بلد ليس بلدها، عليها أن تعيش حياتها وحيدة، عليها أن تختفي من حياة معارفها، وتضع طاقية الإخفاء على طفلتها الصغيرة أيضًا. من يفرط في جسده عليه تحمل تبعات هذا التفريط، هي استسلمت لمحمود فخر الدين، تركت له جسدها لومضة، وها هي الآن تدفع ضريبة ذلك مدى الحياة.

***

{21}

انقضت ثلاثة سنوات ونصف على دخوله للسجن. خلالها تعلم محمود فخر الدين الكثير، كان يرى الزنزانة ككتاب مغلق، لكنه يُلقننا الكثير عن الحياة. في الزنزانة نتعلم تلك الدروس التي لا نجدها في المدرسة الابتدائية ولا حتى في الجامعة، هي دروس خاصة ومجّانية نتعلمها بين القضبان. وهناك تعلم محمود فخر الدين الصبر، والإصرار، والأمل، والتحدِّي. رغم أنه لم يعرف السبب الذي أتى به إلى هنا. تارة يقول إنه الحب، وتارة أخرى يقول إنه الحظ.

بين السجناء لم يشتهر على أنه عازف كمان لديه أكثر من ألف مقطوعة، لأن السجن يغير المهنة، والموهبة. كل سجين وإن كان في حياته العادية كاتبًا، طبيبًا، مهندسًا، بائعَ خردوات، فإنه يتحول داخل الزنزانة إلى نكرة، اللقب الوحيد الذي سيطلقه عليه الحراس هو مجرم وفي أحسن الأحوال يطلقون عليه لقب سجين. لكن محمود فخر الدين نال لقبًا آخر. لقب انتزعه من داخل أفواه السجناء بالقوة، وهو لقب اللورد. لورد الشطرنج العظيم.

حدث ذلك ذات مساء عادي، حينما تقابل محمود فخر الدين مع

لاعب الشطرنج المحترف المعروف بـ حريقة على طاولة الشطرنج في الساحة الخلفية للسجن. لا يعرف حريقة رقعة في حياته غير رقعة الشطرنج، كان ذكيًا ويجيد هزيمة خصومه بسرعة، لا تستغرق جولة الشطرنج العادية عنده أكثر من ثلاثون ثانية، وحينما يكون الخصم عنيدًا فإن الجولة تستغرق دقيقة على الأكثر.

ذاك المساء، وحينما تدلّت الشمس إلى أسفل السماء، وانعكس لونها الأصفرالمجنون على أبواب الزنزانات، اتجه محمود فخر الدين، وعمر كومبو، وعثمان حركة للساحة الخلفية للسجن، حيث تقام الفعاليات الثقافية الصغيرة، ويمارس السجناء بعض الرياضات، والألعاب. فتح الجلاد باب الزنزانة قائلًا لهم:

-اليوم بإمكانكم الذهاب إلى الساحة الخلفية للسجن.

لم يكن مسموحًا بذهاب أي سجين إلى هناك، على السجين إكمال ثلاثة سنوات داخل الزنزانة، وأن يكون ملفّه خاليًا من المخالفات، والانـذارات، وأن يكون حسن السير والسلوك، والأهم من ذلك أن يجيد لعب كرة القدم أو الشطرنج كي يسمح له بالذهاب إلى هناك مرة أو مرتين في الشهر. ولأن ثلاثتهم تنطبق عليهم هذه الشروط، كان مسموحًا لهم بالذهاب إلى هناك. لحظة وصولهم، كانت هناك مجموعة من السجناءعلى الأرض، وآخرون يلعبون كرة القدم، وآخرون يقفون على أقدامهم، يلتفون حول سجينان آخران، بينهما صندوق شطرنج مقلوب.

في اللحظة التي تمكن فيها محمود فخر الدين من حشر رأسه بين

السجناء ليلقي نظرة خاطفة على ما يجري، كانت اللعبة على وشك الانتهاء. وعندما تمكن من العثور على مكان له بين الجموع يمكنه من رؤية جميع رقع الشطرنج بوضوح، انتهت اللعبة لمصلحة حريقة. وكان الوقت المقدر بين حشر رقبته، وعثوره على مكان عشرين ثانية فقط. وانطلقت صافرات إعجاب، وموجات تصفيق هستيرية بفوز حريقة المعتاد، ومن ثم المطالبة بمنافس جديد. ولأنه كان السجين الجديد في تلك الساحة، إضافة إلى عمر كومبو، وقعت الأنظار عليهما.

منذ مدة طويلة لم يلعب محمود فخر الدين الشطرنج، آخر جولة خاضها كانت ضد والده. الآن مضت سنوات طويلة على ذاك اليوم، لذلك كان مترددًا في خوض تحدٍّ لا يعرف منتهاه، مغامرة غير مضمونة النتائج. ولما حاصرته أعين السجناء من حوله، تقدم خطوتين للأمام، وجلس بهدوء على الأرض. جمع البيادق المبعثرة بالقرب منه، وضعها على مكانها، وقبل أن تنطلق اللعبة، أطلق الحراس صافرة قوية مفادها أن وقت اللعب قد انتهى. وأن وقت العشاء قد حان. توقف الاثنان: بادر حريقة بالقول:

-سنلتقي، وسأهزمك.

-ماذا إن هزمتك؟

-سأُضرِب عن الطّعام والشراب حتى أموت.

-حسنًا.

بعد تناول العشاء عاد محمود فخر الدين إلى الزنزانة برغبة عارمة في

تحدي ذاك الرجل، فما سمعه عنه لا يخطر على بال لاعب شطرنج. يقال إن حريقة لم يخسر جولة واحدة في حياته، سواء داخل السجن أو خارجه. وأن أصعب جولة له فاز بها في دقيقة. هو إذن أسطورة الشطرنج في سجن الموت. كيف لرجل مثل محمود فخر الدين أن يتحداه؟ أصبح الأمر مثيرًا للحماس والشغف بين السجناء.

الصدفة التي جمعتهما لم تشأ أن تجمعهما مجـددًا. أصبح موضوع التحدي بينهما حديث الساعة في سجن الموت، وراح كل مَن في السجن مِن سجّان، وجلاد، وباشكاتب، ومدير يتحدث عنه، وبتأكيد كبير على خسارة محمود فخر الدين المتوقعة. فهو لا يمتلك سمعة طيبة بخصوص الشطرنج. لوكان الأمر يتعلق بالكمان لتم تأكيد فوزه على الفور، لكن الأمر يتعلق بجولة شطرنج وهذا ما لا يمكن التنبؤ به.

أمر مدير السجن شخصيًا بفتح الزنزانتين وجلبهما إلى الساحة اليوم، وإقامة جولة الشطرنج تحت مرأى الجميع. كان الحدث استثنائيًا، ومثيرًا للدهشة. في ذلك اليوم سُمِح للسجناء الذين لم يكملوا ثلاثة أعوام بالخروج إلى الساحة الخلفية للسجن، وقدمت لهم وجبات لذيذة وعصائر طازجة، وحلويات، كالبلح، وعصير التانج، وحلاوة طحينية.

وقبل بداية الجولة، ظهر مدير السجن ببطنه الكبيرة، وشاربه الخفيف، هذه المرة الأولى الذي يظهر فيها رجل مهم في ساحات السجن الخلفية. وضع يده على أنفه، تحسس منخريه بأصبعه، ثم عدّل حزامه الملتف حول خصره، تحسس مسدسه، وقال:

-الآن باستطاعتي القول وبثقة إن سجن الموت، تحول إلى سجن الحياة. وأمر بانطلاق الجولة.

كان حريقة يظن أن الجولة ستنتهي بسرعة، فهو دائمًا يستخدم افتتاحية نابليون في هزيمة خصومه، يُتبِعها بحركات سريعة، وينتهي الأمر بمنافسه خارج اللعبة. لكنه بمجرد أن حرّك الجندي«البيدق» الأبيض خطوتين نحو الأمام مُعلنا بذلك بداية النزال، شعر بأن الرجل الذي أمامه لن يكون سهل المنال، ستكون المباراة صعبة ومعقدة، قد تنتهي في دقيقة وربما قد لا تنتهي أبدًا.

وصاح الجمهور المتابع للعبة:

-أهزمه يا حريقة. . أهزمه يا حريقة.

ابتسم محمود فخر الدين في وجه الجميع، كان يريد أن يُسكتهم، ويحشر قطع الشطرنج في فم كل واحد منهم. أمسك بالقلعة «الرخ» وقبل أن يحركها إلى الأمام مُهاجمًا تذكَّر نصائح والده القديمة، حينما كان يعلمه مبادئ الشطرنج. جاءه صوت والده من بعيد مرددًا:

-لتفوز في جولة شطرنج، عليك أن تكون يقظًا طوال اللعبة. عليك أن تركز تركيزًا عاليًا، ففي الوقت الذي تفقد فيه تركيزك، تخسر الجولة. ويقول له أيضًا:

-دافع كثيرًا. . لا تهاجم منذ البداية. سيطر على الرّقع التي في المنتصف. لا تحرك بيادقك إلى الأمام كثيرًا، فأفضل خطة للفوز بجولة شطرنج، هي أن تدافع بشراسة.

غاب محمود فخر الدين عن أجواء النزال، وراح يُنازل ذاكرته المتعبة. خاض لقاء صعبًا مع ذكرياته القديمة. لا زالت أصابعه تداعب الرخ، وما زال حريقة ينتظر. ولما لم يحرِّك أي قطعة من مكانها، وظل ممسكًا بالرخ لفترة طويلة، صاح السجناء بشدة، وأصدروا صافرات استهجان ضده، وصفه البعض بأنه لا يجيد اللعب، وأنه سيضيع وقت الجميع بلا فائدة.

هنا عاد محمود فخر الدين من رحلته البعيدة، وبدأ العرض المجنون. حركة للأمام بالوزير، وأربع حركات بالفيل بشكل قُطري، حركة بالحصان، وثلاثة حركات بالقلعة نحو الأمام. وجد حريقة نفسه محاصرًا بطريقة لا يمكنه الافتكاك منها. بدا كما لو أنه سيخسر الجولة بعد حركتين.

صمت رهيب خيّم على الأجواء، وراح المتابعون للعبة يتفرّسون في ملامح محمود فخر الدين، من هو هذا الرجل؟ ولماذا لا يُهزم؟ لماذا يدافع كثيرًا؟ ويضحي بجنوده؟ اشعل مدير السجن سيجارته وراح يتابع النزال مع السجناء في مشهد لا يتكررا كثيرًا. لم يحدث من قبل، وربما لن يحدث أبدًا. استغرقت اللعبة ساعتين حتى الآن دون أن يفوز أحد. وراح بعض السجناء ينسحبون إلى زنزاناتهم. على ما يبدو فأن الجولة ستستمر إلى الأبد، ورغم أن محمود فخر الدين كان باستطاعته أن ينهيها بحركتين من الوزير، لكنه فضل تأجيل اللعبة إلى وقت آخر. قائلًا لحريقة بعدما أوقف مدير السجن اللعبة:

-اذهب وكل طعام الغداء، لا أريد ان أحرمك من الأكل.

أحس حريقة بالعار، شعر بأنه وضيع، وحقير. هو لم يُهزم في حياته أبدًا، كيف لأحد أن يتجرأ على محاولة هزمه؟ الرجل الذي يعبد الشطرنج، ويقدسه وجد رجل آخر يشاركه في معبوده. أصبح التحدي بينهما أكثر ضراوة من ذي قبل، لأن محمود فخر الدين برهن على مقدرته في لعب الشطرنج. لم يكن منافسًا سهلًا، كان شطرنجي خبير، يجيد الرقص على رقع الشطرنج.

تركا صندوق الشطرنج على حاله، تبقّت سبع قطع لحريقة وعشر قطع لمحمود فخر الدين. تركا صندق الشطرنج على الأرض، على أمل أن يستأنفا الجولة في يوم ما.

ومضى شهران على ذلك اليوم، دون أن يُسمح لهما بإنهاء الجولة، فتارة يسمح لأحدهما بالخروج من الزنزانة، ولا يسمح للآخر. القطع لا زالت على حالها، في مكانها، حتى إن تم تحريكها من مكانها وبعثرتها كانا سيرجعانها إلى مكانها الأصلي، ذرات الغبار اللعينة، والنمل الأبيض، وحشرات ليلية تركت أجنحتها على سطح الصندوق، لكنهما كانا مستعدان لإكمال الجولة من زنزانتيهما.

بعد ثلاثة شهور أخرى، وكان وقتها قد مرّت خمسة شهور كاملة على بداية المباراة بينهما، التقى الاثنان في الساحة الخلفية للسجن. تحركا سويًا نحو صندوق الشطرنج، أزاحا عنه الرمل، والأحجار الصغيرة، وزبل الفئران، وجلسا ليستكملا الجولة. رغم مرور خمسة شهور لم يغب

التحدي بينهما. ورغم أن جميع من في السجن نسي موضوع هذه الجولة إلا أنهما لم ينسيا أبدًا. بسرعة البرق تمكّن محمود فخر الدين من هزيمة حريقة. لم يدع له مجالًا لاستعادة تركيزه، أو المناورة، باغته بهجمات سريعة، وحركات دقيقة، أنهت الجولة لمصلحته. لم يسمع حريقة سوى: كشك حي. وهي عبارة اعتاد محمود فخر الدين على إنهاء اللعبة بها بدلًا من كش ملك. ثم قال له ساخرًا منه ومن وعده الذي قطعه:

-اذهب وكل طعام الغداء.

خلال خمسة سنوات في سجن الموت لم يخسر محمود فخر الدين جولة شطرنج واحدة، وحينما علِم السجناء بهزيمة حريقة السرّية، أطلقوا على محمود فخر الدين لقب اللورد. لورد الشطرنج العظيم. ولم يعد لاسمه الحقيقي أي أثر، اختفى وتلاشى مثلما تتلاشى ذرات الدخان.

***

{22}

دخل حريقة في اضطراب عن الطعام نسبة لخسارة مواجهته أمام اللورد. في ساعات الغداء وحينما يخرج السجناء لتناول طعامهم في منطقة التّجمُّع، كان هو يتلّوى على أرضية الزنزانة من الجوع. ويقول لنفسه:

-لقد هزمني. يجب أن أفي بوعدي. على هذا الجسد الخاسر أن يموت.

جسد السجين هو الشيء الوحيد الذي يتمحور حوله السجن، لذلك فإن أي محاولة لإفنائه تقابل بالرفض، أي محاولة للعبث به يكون مصيرها الحسم، بلا أجساد حيّة تصبح الزنزانة خاوية، وفارغة، وموحشة. على السجين أن يحافظ على جسده ليعمل السجن، عليه ألا يحاول إبادته، فهو بمثابة المادة التي يشتغل عليها السجن، وبدونها يتوقف عن العمل.

بمرور الأيام تأثّر جسد حريقة بالامتناع عن الأكل والشرب. برزت عروق رقبته، وانسحبت بطنه إلى الداخل، برز قفصه الصدري، أما عيناه فأصبحتا كحجرين ثُبِّتا على وجه دمية. لم يتناول طعامًا ولا شرابًا منذ خمسة عشرة يومًا، ما دفع الحراس للتدخل ومحاولة إطعامه بالقوة.

كان ممدّدًا على الأرض بلا حراك، تنبعث من فمه رائحة كريهة أشبه برائحة المستنقعات المتعفنة. دخل أحد الحراس إلى الزنزانة، تفحص

نبضه، نزع عنه بدلة السجن، وسكب الماء على فمه المُقفل. ورغم محاولة عدد من أصدقائه ورفقائه في الزنزانة فتح فمه ليعبر الماء إلى حلقه إلا أنهم فشلوا. كان فمه مقفلًا بإحكام كخزانة نقود صلبة موضوعة في منزل تاجر شجع. كانوا مضطرين لكسر أسنانه ليعبر الماء إلى فمه. كان المنظر بشعًا، وفظيعًا. لكنهم حينما كسروا أسنانه الأمامية عن طريق الدبشك، اكتشفوا أنهم تأخروا كثيرًا، لأنه كان وقتها قد فارق الحياة.

رحل حريقة بشجاعة بعد أن أوفى بوعده. رحل وهو يردد:

-سأهزمك يا لورد. سأهزمك يا لورد. بصوت خافض وضعيف.

ولّما سمع رفقاءه في الزنزانة اسم اللورد يتردد على لسانه، ظنوا أن هناك شيئًا يجمع بينهما غير الشطرنج. ربما هو المتسبب في قتله. من يدري؟

أثناء أحاديثهما المسائية المعتادة داخل زنزانة الفلاسفة الأغبياء، قبل حلول الظلام بلحظات، وفي الوقت الذي فرغ اللورد من سرد قصة فوزه على حريقة قبل أسبوعين، وعندما أكمل عثمان حركة قراءة قصيدته الأخيرة، وبينما كان عمر كومبو يتأهب لقراءة تقرير مميز كتبه عن حياته داخل الزنزانة، سمعوا جميعهم صرخات بكاء هستيرية قادمة من بعيد. من الزنزانات التي تقع على الجهة المقابلة لساحة التجمع.

كانت الصرخات تعلو وتهبط تُرافقها أصوات واضحة تردد:

-لقد قُتل حريقة. لقد قُتل حريقة.

***

{23}

المصائب لا تأتي فُرادى. تأتي دفعة واحدة، تجتمِع وتتحِد في مكان واحد ثم تحلّ على حياة أحدهم فتحيلها إلى جحيم. في ذلك اليوم الذي مات فيه حريقة جائعًا، وعطشانًا نزلت الكوارث على حياة اللورد بقوة، دفعة واحدة، مثل بركان خامل أخرج حممه، ونيرانه، وغازاته السامة إلى السطح. أرّقت تلك الكوارث مضجعه، وسحبت الراحة التي يهنئ بها من تحت قدميه. خمسة أعوام ونصف مرّت منذ قدومه إلى هنا، وخلال تلك الفترة ظل اللورد محبوسًا بالزنزانة دون أيّ أصفاد. لكن بعد موت حريقة، والقول إن اللورد تسبب في قتله ذات جولة شطرنج، أشياء كثيرة جدًا تغيرت.

كان اللورد مُتكئًا على جدران الزنزانة، زنزانة الفلاسفة الأغبياء، يحاول جاهدًا تقبّل فكرة موت حريقة. حزن لأجله كثيرًا، بقدر التحدي الذي جمعها. نزلت دموعه على خديه، كان الرجل طيبًا وبارعًا في لعب الشطرنج، وقبل أن يمسح اللورد دموعه من خدّيه رأى عبر القضبان الحديدية ثلاثة حراس، أحدهم كان يسحب أصفادًا ثقيلة على الأرض، والآخر اهتم بفتح الزنزانة، أما الثالث فأطلق نظرة توّعد ووعيد شملت

جميع من في الزنزانة.

دخل الحراس إلى الزنزانة، وانهالوا بالضرب على اللورد. ركلوه على بطنه، على وجهه، على رقبته، ثم وضعوا الأصفاد على رسغيه، وقدميه، ورقبته. وأخذوه إلى الخارج. إلى زنزانة الحبس الانفرادي. وهناك سأل اللورد نفسه:

-ماذا فعلت لأعامل بهذه الطريقة؟ ماذا فعلت في الحياة لأسجن وأضرب بدون ذنب؟ خمسة أعوام قضيتها بين القضبان بلا سبب، بلا جريمة، اللهم إلا العزف، والحب.

تقع زنزانات الحبس الانفرادي داخل زنزانة كبيرة، مسقوفة بالقضبان الحديدية، حيث بإمكان أشعة الشمس التسلل إلى الداخل. الزنزانة خشبية الشكل، ضيقة جدًا، لها باب صغير بطول متر. لا تحتمِل توقّفه على هيئته، عليه أن يتمدد أو أن يجلس القرفصاء. بها فتحة صغيرة أعلى الباب لتمرير طبق الطعام والماء. تصيب قدماه الخدر فيحركهما، تصيب إليتيه موجة لاسعة فيجثوا على ركبتيه ويضع كفتا يديه على أرضية الزنزانة كوضعية الكلب تمامًا. لا يعرف اللورد حتى الآن سبب وجوده في هذه الزنزانة، أو سبب وجوده في سجن الموت حتّى. كل الذي يعرفه أنه أحب سارة بنت الوزير، ومازال يحبها وسيحبها في المستقبل الآتي رغم الظروف. هو عازف مجنون، وعازفي الكمان لا يتوبون عن العزف بسهولة.

في ذاك المساء، عندما وضعت الأصفاد على رقبة اللورد، ونُقل إلى زنزانة الحبس الانفرادي شعر عمر كومبو بالذنب. رأى أن اللحظة

المناسبة قد حانت لقول ما يعرفه عن اللورد الذي هو محمود فخر الدين، ومشاركة كل صغيرة عن حياته في بيت الوزير مع عثمان حركة. دخل الظلام، ومع رحيل اللورد إلى زنزانة أخرى أصبح الظلام حالكًا أكثرمن ذي قبل. اقترب عمر كومبو من عثمان حركة. قال له والظلام الدامس يُحيل بينهما:

-لديّ سر.

-الرجال لا يخفون الأسرار. تجاهل عمر كومبو استفزاز عثمان حركة له. وقال:

-أنا أعرف اللورد. أعرفه من زمن بعيد. أعرف لماذا سُجن؟

-لماذا؟

-اللورد. . سكت لبرهة ثم أتم: قتلني.

-هاهاهاها. يبدو أنك ستقتلني بهذا الكلام.

-أسمع كلامي للآخر ولا تقاطعني.

-حسنًا. سكت عمر كومبو للحظة. طرد كل تلك المخاوف التي كانت تسكنه، وسرد تفاصيل قصته مع محمود فخر الدين والوزير:

تعرّفت على اللورد حينما رأيته لأول مرّة في منزل سارة، وهي ابنة وزير في الحكومة. كنت أكتب التقارير عنه، وعن زياراته الخطرة لبيت الوزير. كنت اختبئ خلف أشجار الموز الكاذب كالأرنب، والتقط الصور لهما. أنا رجل سيء جدًا، سيء جداً يا عثمان. . ضربت اللورد بشدة، تبولت عليه، وكسّرت كمانه على رأسه. هنا تدخّل عثمان حركة مُقاطعًا:

-الآن فهمت القصّة. لماذا تناقشتما ذاك اليوم؟ ولماذا أوقف اللورد الدرس ولم يكمله؟ ثم طلب منه المواصلة.

أكمل عمر كومبو:

-اللورد نفسه لا يعرف أن سارة حبلت منه، وانجبت طفلة في القاهرة. عمرها الآن قرابة الخمس سنوات. وتدخل عثمان حركة غاضبًا.

-خمسة أعوام هنا. . في زنزانة واحدة، ولم تخبره بذلك. يا لك من حقير، وخسيس. ابتسم عمر كومبو وقال:

-الأسوء من هذا أنه متهم في جريمة قتل.

-قتل من؟

-قتلي أنا. وقال بتحدي:

-أيهما أفضل: هل أخبره بأن لديه طفلة لا يعرف عنها شيئًا، أم أخبره بأنه قتلني؟

هبّ عثمان حركة من مكانه، وصاح في عمر كومبو:

-هل أنت مجنون.

عبر الظلام سحب عمر كومبو يد عثمان حركة، أقعده على الأرضية واتم سرد القصة:

-كلفني الوزير بمتابعة تحركات ابنته التي أحبّت شابًا يدعى محمود فخر الدين، لا نعرف من أين ظهر. وبما أنه عازف كمان فمن المتوقع أنها التقت به في مركز الموسيقى الخاص بها. والدها لم يكن يريده، فهو لا يشبههم، أسرته فقيرة ويسكن في الأحياء الفقيرة في أم درمان. مثلي تمامًا.

كانت سارة تحبه جدًا، لذلك كانت تدبر لهما لقاءات سرية في البيت أثناء غياب والديها. وكنت أدون كل ما أراه، وأسلمه إلى الوزير يومًا بيوم.

أخذ عمر كومبو نفسًا طويلًا، وواصل سرد الحكاية:

-حاول الوزير عدة مرّات إفشال هذه العلاقة لكنه فشل. وحينما تمادى اللورد في حبه، وتمـادت سارة في شغفها به، تمادينا نحن في مطاردتهما، وإنهاء علاقتهما. وقبل أن نتمكن من ذلك، كانت هناك طفلة صغيرة تتكور في أحشاء سارة.

كان عثمان حركة يتابع حديث عمر كومبو بذهول، الذي واصل:

-بعد علم الوزير بحمل ابنته من عازف كمان قرر الانتقام منه، وإرساله إلى هنا.

-وأنت لماذا أرسلوك إلى هنا؟

-حسنًا. كما قلت لك أنا رجل سيء. لا يمكنك تخيل مدى الخبث الذي اتمتع به. وقال مازحًا:

-ألم تجيبك الخمس سنوات؟ ثم أكمل: كل هذه التفاصيل التي سردتها لك كانت معروفة في نطاق الأسرة فقط. أنا نقلتها إلى الخارج. بعتُ التقارير التي كتبتها لصحفي شريف. ونشرت الصور التي التقطتها على مواقع التواصل الاجتماعي. كان واضح تمامًا أنني من قام بهذه العملية، قمت بها لأنني كنت بحاجة ماسة للنقود. . . لا داعي لأسرد لك كل التفاصيل. المهم أرسل الوزير جماعة للقبض عليّ، وحينما قبضوا عليّ اقتادوني لمكان قصي لا أعرفه، وهناك أخبروني بأني مت، وأن من

قتلني هو اللورد.

-لا أعرف ما أقوله لك. لكن يجب أن تخبر اللورد فور خروجه من الحبس الانفرادي بكل هذه التفاصيل.

-حسنًا.

من ينقذ اللورد من ورطته؟ هو مُتّهم بقتل عمر كومبو صديقه الجديد، عدّوه القديم. ومتهم أيضًا بجريمة قتل أخرى. قتل لاعب الشطرنج حريقة. في الحقيقة هو لم يقتل أحدًا، طوال حياته هو لم يتسبب في موت نملة، إنما قتله الحب، والناس.

***

{24}

عادت سارة إلى الخرطوم في صباح يوم عادي ورتيب. كأنها لم تغادر المدينة قبل خمس سنوات. كل شيء ما زال على حاله. الطرقات المتسخة لا زالت تعاني القذارة والقرف، والشجيرات الصغيرة على جانبي الطريق يخنقها الصهد، الملصقات الورقية تلتصق بجدران المنازل بعناد، فتبدو كبثور مزعجة على وجه فتاة مراهقة.

غادرت سارة لوحدها لكنها عادت مع طفلتها فرح التي كانت تمشي إلى جوارها. تبتسم تارة، وتجري تارة أخرى، وتقفز مرات ومرات. خلال الخمس سنوات لم تزر سارة السودان إلا مرة واحدة، وهي عندما توفت والدة صديقتها ليلى. لكنها اليوم عادت بالمرّة، عادت محملة بحقائبها، وقلقها، وخوفها من أن يسأل الناس ابنتها الصغيرة ما اسم والدك؟ لذلك عملت على تمليك ابنتها الصغيرة كل المعلومات الخاصة بوالدها. أخبرتها بأن اسمه محمود فخر الدين أيوب، وأنه عازف كمان، تخرج في كلية الموسيقى والدراما، وأنه اختفى منذ زمن بعيد.

وصلا إلى البيت أخيرًا. كانت الطفلة فرحة ومسرورة. أخيرًا ستلتقي بجدّتها، وجدّها وترتمي في أحضانهما من فرط الفرح والسعادة بعد سنوات

طويلة من الارتماء على أحضان ما تسمعه عنهما. كان الجدّ خارج البيت، كان مشغولًا باستقبال ضيوفه على شرف انتقاله إلى وزارة جديدة. حينما رأت فرح جدتها في الصالون، وفي الممر المؤدي إلى غرفة سارة، جرت إليها بسرعة ثم قفزت إلى صدرها.

في تلك الأثناء دخلت سارة إلى غرفتها التي حوّلها والدها إلى مخزن لتخزين العملات الصعبة. لم تجد ذكرياتها القديمة. شعرت بروحها تقف في منتصف بنك يضج بالعملات الأجنبية. أدركت من خلال حزم الدولارات الموضوعة على كل قطعة أثاث بالغرفة أن الأمور لا زالت معقدة، بل ازدادت تعقيدًا رغم مرور السنين. فلو لم تكن كذلك لكانت وجدت دُماها وألعابها القديمة بدل أن تجد هذه الأوراق النقدية.

في المساء جاء الوزير المبجل الذي هبط من السماء ليحكم على الناس بالإعدام، دخل إلى البيت وهو يتحدث على الهاتف، رأي حفيدته، وزوجته، وابنته الوحيدة، رأى الأسرة جميعها لكنه عبَر الصالون إلى غرفته دون أن يُلقي عليهم نظرة اهتمام. ولما حاولت فرح الركض نحوه أمسكتها سارة وأبقتها إلى جانبها. سألت فرح أمّها والدموع تحاول الخروج من حدقتيها البريئتين:

-هل هو غاضب منّا؟ تدخلت الجدّة.

-لا لا. . يبدو أنه متعب قليلًا.

اليوم ومن داخل غرفة النوم، تذكّر الوزير محمود فخر الدين. تذّكر كمانه، وعناده. بمجرد رؤيته لسارة وطفلتها تذّكر الرّجل الذي سبب له

العار، وفضحه أمام نفسه وتربيته. لخمس أعوام خلت لم يذكُر الوزير اسم محمود فخر الدين على لسانه، نساه كما نسي ابنته تمامًا. اليوم عادت ذكريات الثأر القديمة للرجوع، نبشت الذاكرة وأحيتها من برزخها العميق، وحركت المياه الراكدة. قائلة: الثأر لا يخمد أبدًا. العار لا يمكن نسيانه.

في صباح اليوم التالي سأل الوزير حفيدته الصغيرة، بعد أن حملها وضمّها إليه بغير حب: سألها بصوت خفيض:

-من أنا. أجابت فرح بابتسامة:

-جدّي. بابا أيمن. أومأ رأسه إيجابًا. ثم قال:

-أين والدك؟

-تقول أمي أنه اختفى منذ خمسة سنوات.

-ما اسمه؟

-محمود فخر الدين أيوب. سكتت قليلًا ثم أكلمت: بابا عازف كمان.

أنزلها من على صدره، وضعها على الأريكة. وحدّث نفسه بوجع:

-أنا قادم يا عازف الكمان.

***

{25}

على ما يبدو فإن الخمس سنوات لم تكن كافية لإزالة الضغينة التي يحملها الوزير المبجل تجاه اللورد. رجل مثله يحتاج لخمسة قرون كاملة كي ينسى. هو من نوعية الأشخاص الذين لا ينسون أبدًا، كما أن نيران العار التي تشتعل في داخله لا يمكن اخمادها بسرعة. تهدأ النيران قليلًا، يخفُض لهيبها كثيرًا لكنّها لا تنطفئ. دائما كانت تُعيد اشعال نفسها بنفسها تارة، وتارة أخرى تُشعلها الذّكريات. المواقف الصغيرة كانت بمثابة الوقود الذي يُحرّك الشرارة الساكنة في جوفه، وتحيلها إلى نارٍ عملاقة تأكل كل شيء أمامها.

عندما سأل الوزير حفيدته فرح عن اسم والدها، كان يظن أنها لا تعرف عنه شيئًا. لكنها عندما نطقت باسمه، وباسم آلته، شعر الوزير بضرورة حسم الأمر برمته. حسمه يعني الانتهاء من حياة اللورد الذي يعيش أصعب لحظات حياته داخل زنزانة الحبس الانفرادي.

بعد أيام من تلك الحادثة ذهب الوزير إلى سجن الموت لرؤية الرجل الذي دمّر حياة أسرته، فرّقها وجعلها لقمة سائغة للقيل والقال. ذهب إلى هناك بهدف واحد، وهو أن يجرّ اللورد من رقبته إلى حبل المشنقة. أن

يشنقه كما شنق وحدة أسرته.

منذ أن أمر الوزير المبجل باقتياد اللورد إلى تلك الغرفة المظلمة، ومن بعدها إلى سجن الموت لم يره ولا بالصدفة، ولم يسمع عنه أيّ خبر. نساه كما ينسى مريض الزهايمر الأشياء. الفارق الوحيد بين مريض الزهايمر ومرض الوزير، أن مرض الأخير أكثر إيلامًا على الذّاكرة، يُتعبها ويدمرها ويحيلها إلى أشلاء.

دخل الوزير إلى السجن عبر البوابة الكبيرة ذات الإطارات الحديدية الصغيرة. كانت عقارب الساعة وقتها تشير إلى العاشرة صباحاً. فتح الحراس الباب بهدوء دون إحداث أيّ ضجة لكن الإطارات الحديدية أصدرت صريرًا مزعجًا. عبرت سيارته إلى فناء السجن وتوقفت بالقرب من الساحة الخلفية، تحديدًا في المكان الذي شهد أشهر جولة شطرنج في تاريخ السجن. وهناك جاء مدير السّجن مُهرولًا، برفقة عدد من الحراس الذين قادوا الوزير بدورهم إلى الزنزانة التي يوجد بها اللورد.

كان اللورد حينها يتناول فطوره، ويفكر في طريقة للتخلص من هذا المأزق. صحن العدس الماسخ أمامه، وقنينة ماء بلاستيكية كانت تتكئ على الجدار، وقربها قنينة أخرى مملوءة إلى آخرها بالبول. أحس اللورد بوقع أقدام الحُراس وهم في طريقهم إليه، في وقت لا يأتون فيه أبدًا. فعادة ما يأتون إلى الزنزانة مرتين في اليوم، مرة لإحضار طبق العدس الذي يأكل منه الآن. ومرة أخرى لأخذ قنينة البول والأطباق. أخذ جرعة ماء صغيرة، عندها فتح أحد الحراس باب الزنزانة.

منذ ذلك اليوم الذي اقتيد فيه إلى هنا، لم يرَ اللورد أشعة الشمس. لذلك كان احساسه عظيمًا ومختلفًا برؤية الضوء وهو يتسلل إلى داخل زنزانته. في بعض الأحيان كانت أشعة الشمس تتسلل إليه عبر فتحة الطعام أعلى باب الزنزانة. يمرّ الضوء عبرها لثانيتين، وهي المُدّة التي يُمرِّر فيها الحراس طعام الفطور له. لم يكن ليستمتع بالضوء بهذه الطريقة، كان بحاجة لمزيد من الوقت. لكنه اليوم أحس بشعاع الشمس الأصلي والنقي يملأ أركان زنزانته، وقبل أن يستمتع به حجبه عنه الوزير الذي جثا على ركبتيه أمام الباب.

وجها لوجه التقى الاثنان مجددًا. اللورد داخل الزنزانة، والوزير على بابها. في كل نزالاتهما السابقة كان الوزير هو الشخص المتفوق دائمًا، إلا في نزال ابنته لأنه خسر المعركة منذ البداية وإلى الأبد. السجن يُغيّر الملامح سريعًا. لذلك بدا اللورد كرجل أربعيني في حين أنه لم يتخطى التاسعة والعشرين بعد. سأل الوزير مدير السجن الذي كان يقف وراءه:

-أين محمود فخر الدين؟

-ها هو أمامك يا سيدي. اللورد بشحمه ولحمه.

-اللورد؟

-هذه قصة طويلة. لكن أقسم لك أن الذي أمامك هو اللورد. أقصد محمود فخر الدين.

ملامحه تغيرت بالمرّة، اختلط سواد شعره ببياضه، حدقتاه ازدادتا ضيقًا، لم يكن هو ذاك الشاب العشريني أبدًا. أحس الوزير بالشفقة عليه،

على الحالة السيئة التي يعيشها، خاصة عندما رأى قنينة البول إلى جوراه، وطبق العدس الماسخ أمامه.

في المقابل لم يتعرّف اللورد على الوزير في الأوّل. فهو لم يره وجها لوجه في السابق. نعم سمع صوته، وتحمل ضرباته، ولكماته، ولعناته لكنه لم ير وجهه أبدًا. ولأن اللورد كان ذكيًا جدًا، إضافة إلى أن سارة تشبه والدها قليلًا، أدرك اللورد على الفور ماهية هذا الرجل. الذي قال:

-كان بإمكاني قتلك قبل خمسة أعوام، لكنني أبقيت عليك. لا أعرف لماذا. الآن وقد تحولت إلى رجل ضعيف، وحقير تأكل طعامك مثل الكلب، وربما نسيت كيفية العزف على الكمان. هل ما زلت تذكر تلك الفتاة؟

سكت اللورد طويلًا، ثم أجاب بثقة وهو يتكئ على جدار الزنزانة:

-نعم ما زلت. وسأذكرها دائمًا وأبدًا.

أصابت كلماته الوزير في مقتل. نزلت على قلبه كالصاعقة. كان يظن أن السجن يكسر كبرياء الرجال، ويحيلهم إلى دمى فارغة. لكنه اكتشف عكس ذلك؛ السجن يزيد الرجال قوة، وكبرياء فوق كبريائهم.

ما زال الخطر موجودًا إذن. هذا السجين العنيد سيعيث الأرض فسادًا حالما يبارح أرض الزنزانة. حبيبته وطفلته في انتظاره. هو لن يتوب عنهما أبدًا. شعر الوزير في أعماقه بالهزيمة، شعر بالخزي والعار يطاردانه من كل حدب وصوب. أحس بالهزائم تلاحقه لأن ثقة اللورد ونظراته، وطريقته في الكلام، تهزم أعتى الرجال قوة. يتحدث اللورد كأنه حرّ طليق، يقول

كلماته وأحرفه بثقة مفرطة، لا يعرف أين سارة الآن، وضعها، حياتها، مستقبلها، لكنه ما زال يحبها وسيظل.

وقف الوزير على قدميه، ضرب باب الزنزانة بقوة. وقال لمدير السجن وجنوده:

-هذا المجنون لن يتوب أبدًا. ألقوا عليه أشد العذاب. ومضى.

داخل الزنزانة ابتسم اللورد بفرح. حرك ساعده الأيمن ثلاثة مرات ضامًا قبضة يده بقوة، لأنه وبعد طول هذه السنوات من الصمود، والصبر أخيرًا جاءه الخبر اليقين. سارة لا زالت بخير.

وضع فمه على فتحة الطعام، وقال مخاطبًا الوزير الذي ابتعد رويدًا رويدًا نحو الباب الرئيسي للزنزانات:

-شكرًا لك.

***

{26}

هناك في زنزانة الفلاسفة الأغبياء المحكوم عليهم بالإعدام انتظر الاثنان قدوم اللورد بلهفة وشوق. كانا ينتظران قدومه ليخبرانه بأي شيء. سيحدثانه عن حبيبته سارة، وابنته الجميلة التي لا يعرفان اسمها. سيحكيان له قصة مقتل عمر كومبو الطريفة، والتي ستضحكه بدون أدنى شك. لكنه لم يأتِ وربما لن يأتي أبدًا. مرّت شهور على نقله من هنا. في كل يوم يصحو عمر كومبو وعثمان حركة على أمل رجوعه. الندم يخنق عمر كومبو ويحيط به من كل جانب. فيحدث نفسه والدموع تسيل من عينيه:

-لماذا لم أخبره بالحقيقة؟ لقد كنّا هنا معًا لخمس سنوات ولم اخبره بشيء. الآن وبعد نقله أشعر برغبة عارمة في التحدث معه، وإخباره بكل التفاصيل. ثم يبكي بأسى.

أما عثمان حركة فقد استمر في كتابة قصائده الثورية بلا توقف. كان يكتب ويكتب. ويقرأ كل حرف كتبه على عمر كومبو رفيقه الوحيد.

في مساء أحد الأيام قرأ عثمان حركة على عمر كومبو قصيدته الأخيرة: الزنزانة بيت الأقوياء:

بين هذه الجدران التقينا
لم نحدد يومًا لنا

يومًا يجمعُ شملنا
كان الصبحُ لنا
الليل كان لنا
هواء الزنزانة
هدوءها، كآبتها
وكل ضوءٍ شارد لنا
بين القضبان نحن أصدقاء
في المعاناة نصبح رفقاء
لا نخاف الضرب والتعذيب
لا نهاب اللكم والتعنيف
فالزنزانة بيت الأقوياء

كانت القصيدة ملأى بالتحدي وبالصبر، وبالأمل. ناما ذلك اليوم على إيقاعها وفي الصباح جاءت اللحظة الحاسمة في حياة عثمان حركة. اليوم وعند الثامنة صباحًا وهو الوقت المحدد للإعدام في سجن الموت. سيُعدم عثمان حركة. قضى سبعة أعوام في السجن، كتب خلالها خمسة ألف قصيدة. اليوم سترسل روحه إلى البعيد، حيث لا أحد يقرأ قصائده، ولا أحد يهتم بنضاله.

لم يحددوا تاريخ إعدامه، كما أنهم لم يحددوا تاريخ إعدام نزيلٍ من قبل. عندما يتعلق الأمر بإزهاق روح فهم لا ينتظرون الإذن من أحد، لا يُعرف من أين تأتيهم الأوامر. كانوا يأتون إلى إحدى الزنزانات، ويسحبون أحد

النزلاء، ويسوقونه إلى المشنقة كما تساق النعجة إلى المسلخ دون سابق انذار.

هو لم يكن مُكبلًا. منذ دخوله للسجن لم يضعوا الأصفاد على يديه. ولا حتى على قدميه. في الحقيقة هم لايضعون الأصفاد على السجناء الذي يسجنون في زنزانة الفلاسفة الأغبياء المحكوم عليهم بالإعدام، وهو الاسم الذي أعطاه مدير السجن الأسبق للزنزانة رقم 20 والتي تقع في الجانب الشرقي للسجن. نسبة لأن أوائل السجناء الذي مروا بها كانوا مناضلين سياسيين، ومعارضين للنظام. كانوا يتحدثون بكلام غريب وعجيب داخل الزنزانة، يبرطمون بكلام غير مفهوم لا يعرفه عامة الناس. إلى أن تم إعدامهم جميعًا واحدًا تلو الآخر، مناضلًا وراء مناضل، فيلسوفًا وراء فيلسوف.

حينما دخل الجلادين إلى الزنزانة أحس عثمان حركة بأن لحظته قد حانت لذلك وقف على هيئته، وظهرت من خلفه تلك العبارة «لن أتوب أبدًا». كان يود إخبارهم أنه لن يتوب أبدًا عن مواجهة النظام الحاكم، حتى وإن قادوه إلى العدم، حتى وإن حوّلوه إلى أشلاء. وبسرعة أخذوه من مكانه، ألبسوه بدلة حمراء، غطوا وجهه بقطعة سوداء، ومن خلف القماش الأسود قال عثمان حركة موجها كلماته لعمر كومبو:

-حينما تلتقي باللورد. أخبره كل شيء. لا تكن جبانًا. في الزاوية هناك تجد دفتري احتفظ به لأجلك. ثم قال بقوة:

هذا النيل يجري في دمي. .

هذا العشب يجعلني أقاوم. .

***

{27}

انقطع التواصل بين أمجد فلسفة وسارة منذ مدة طويلة. هما في الأصل لم يتحدثا إلى بعضهما سوى مرّة واحدة على الهاتف. حدث ذلك في اللحظات الأولى لاختفاء محمود فخر الدين. أثناء وجودها بالقاهرة لم تتصل سارة يومًا بأحد لتسأله عن حبيبها. عاشت حياتها كما ينبغي أن تعيشها أي امرأة مذنبة. عاشتها كأم وحيدة افنت سنوات عمرها في تربية ابنتها. كما أن المسافة التي بين الخرطوم والقاهرة تكفّلت بمنعها التواصل مع أحد خاصة أمجد فلسفة. ذاك أن الجغرافيا تعقد عمليات التواصل بين الأشخاص.

لكنها اليوم عندما دلفت إلى غرفتها وبحثت في مكتبتها القديمة، بين حزم النقود الورقية عن رواية «فلتغفري» ساقها الحنين والحب للبحث عن حبيبها الغائب منذ سنين. تعرف أنه غائب، ولا تدري عنه شيئًا. لذلك امسكت بالكتاب، واحتضنه بشدة كأنما تحتضن الغياب. وحدثته بوجع: أيكون قد مات؟ لماذا لا أتصل على رقم هاتفه؟

هي لم تنسَ ذكراه يومًا. لكنها لم تكن ترغب في إرهاق روحها بالبحث عن إبرة في كومة قش. أحيانًا يقلتها اليأس، وأحيانًا أخرى

يُحييها الأمل. وما بين اليأس والأمل كانت تعيش. ولأن مساحات الأمل اليوم كانت كبيرة، أمسكت بهاتفها واتَّصلت برقم محمود فخر الدين القديم.

-مرحبًا.

-مرحبًا.

وسكت الاثنان. كان أمجد فلسفة هو المتحدث على الجانب الآخر. احتفظ برقم الهاتف الشخصي الخاص بصديق طفولته، لأنه كان ينتظر هذه النوعية من المكالمات. انتظرها لسنين طويلة بصبر عجيب، وبإخلاص وتفانٍ لا مثيل لهما. لذلك عندما اتّصلت سارة عرفها على الفور. تعرّف عليها سريعًا ليس من خلال رقم الهاتف الذي لم يكن موجودًا في قائمة الأسماء، وليس من خلال صوتها لأن الخمس سنوات قادرة بكل تأكيد على تغيير جلجلة الرعد، وعزيف الجن، ناهيك عن صوت امرأة، وإنما من خلال التنهيدة التي اطلقتها. فهي نفس التنهيدة التي اطلقتها في لقائهما الأول على سماعة الهاتف. بادر أمجد بالقول:

-كنت واثقًا من أنّك ستتصلين؟ وسألها: أين كنت خلال كل هذه السنوات؟

-في القاهرة. أجابها لاثمًا:

-ظننتك في الآخرة.

خافت من ردّه. هل يريد قول إن محمود فخر الدين ذهب إلى الدار الآخرة، وعليها اللحاق به؟ أم إلى ماذا يرمي هذا الرجل؟ تداركت

الموقف وسألته بحب:

-دعني أكلم محمود فخر الدين؟

أحست به إلى جواره، يحاول إخافتها. تمنّت لو تصْدُق نبوءتها وتكلِّمه بهذه السهولة. لكن جاءها الرد سريعًا، مُكذبًا كل النبوءات والأساطير.

-منذ ذلك اليوم الذي كلمتك فيه، وسألتك عنه. لم. . وسكت.

حثّته على المواصلة فأكمل:

-لم أره ولم أسمع عنه شيئًا. غاب صديقي طويلًا جدًا دون أن أعرف له وجهة. غيابه بالنسبة لي أضحى كمسألة فلسفية معقدة مِثل وجود الإله من عدمه. اليوم حينما اتصلت بي ظننتك تملكين أخبارًا سارة مثلك، خلتك ستقولين لي أنكِ وجدت الإله. ولكن.

قالت سارة:

-ليته يعود من غيبته الآن. لأن طفلته الصغيرة تشتاقه. وتتلهف لرؤيته.

-طفلة؟

-أتذكُر ذلك اليوم عندما تركتنا لوحدنا وذهبت. كل ما نحن فيه من متاعب، ولعنات سببه ذلك اليوم.

على الجانب الآخر ابتسم أمجد فلسفة ابتسامة مجد. أحس بالانتصار ليس لأنه أكتشف فجأة أن لصديقه طفلة، وإنما لأن مقولته عن العلاقات الجنسية غير المخطط لها أثبتت صحتها اليوم. تمنى أن يكون

صديقه هنا فيسخر منه، ويرقص أمامه فرحًا بانتصاره. ولكن.

واصلت سارة:

-اسمها فرح، عمرها خمسة أعوام ونصف.

-رائع. لو كان هنا، كان سيفرح كثيرًا.

أغلقت الخط. واتفق الاثنان على التواصل الدائم.

***

{28}

أصبحت سارة تتصل بأمجد فلسفة يوميًا، وترسم معه الخطط لإيجاد محمود فخر الدين الذي أتم ستة أعوام من الغياب. خططهما كانت متعِبة لأنها شملت البحث في كل سجون الخرطوم زنزانة. . زنزانة، ومعتقل. . معتقل. هما لم يضعا احتمالية موته في حسبانهما. كانا يَريانه حيّا يُرزق، رغم مرور سنوات طويلة على اختفائه لا زالا يحلمان بعودته المتوقعة. لأن عازف الكمان كما يرى أمجد فلسفة مهما انقطع عن العزف وابتعد عنه سيعود إليه حالما يسمع رنة وتر، حالما تتسلل إلى أذنيه نغمه هاربة من بين أوتار الكمان.

انضمت سيدة الأعمال المشهورة إليهما في رسم الخطط. كانت تمدهما بالأخبار التي تتحصل عليها من زوجها الجديد ضابط الشرطة عاطف الجميعابي. بعد طلاقها من زوجها الأول بعد زواج دام ثلاثة عشر عامًا، ها هو القدر يساعدها في الوصول إلى مبتغاها، إلى مقطوعات محمود فخر الدين بالتحديد. الصدفة جعلتها تقع في غرام شخص يحل هذا اللغز اللعين.

أثناء عودتها من رحلتها إلى دُبي، وفي مطار الخرطوم تعرّفت منى

سعيد على ضابط في الجمارك ساعدها على تخليص أمورها. تطورت العلاقة بينهما سريعًا، وقعا في الحب وتم الزواج في غضون شهرين. وبعد شهرين آخرين تم نقل زوجها من هيئة الجمارك إلى مصلحة السجون، لينتهي به الحال نائبًا للمدير في سجن الموت. من خلال زوجها تحصلت منى سعيد على معلومات مهمة متعلقة بسجين في سجن الموت يشبه محمود فخر الدين تمامًا لكنه يدعى اللورد، وهو لاعب شطرنج محترف.

اتصلت منى سعيد بأمجد فلسفة وأخبرته بالقصة. ضحك أمجد وقال مازحًا:

-يبدو أنك لا تعرفين الفرق بين الكمان والشطرنج. الفرق بين «الصول» والبيدق.

أما سارة حينما سمعت هذه الأخبار سخرت من سيدة الأعمال المشهورة قائلة:

-أعتقد أننا نبحث عن عازف كمان يُدعى محمود فخر الدين. لا لاعب شطرنج.

على مدار خمسة أشهر كانوا يجتمعون ثلاثتهم في منزل محمود فخر الدين القديم بالإضافة إلى طفلته الصغيرة فرح التي كانت تُداعب أوتار كمانه الكلاسيكي بشوق طفولي. في اجتماعهم الأوّل لم يتوصلوا إلى أخبار مطمئنة بخصوصه. لكنهم في لقائهم الثاني وحينما أصرّت منى سعيد على ضرورة التعرّف على هذا السجين الذي يقبع في سجن

الموت، وبعد نقاش مطوّل، ولأنهم خلال الستة أعوام الماضية لم يسمعوا أي خبر من هذا النوع، اتفق الجميع على ضرورة الذهاب إلى سجن الموت بعد أن تُسهّل منى سعيد بمساعدة من زوجها عاطف الجميعابي أمر الذهاب إلى هناك.

اقنعتْ منى سعيد زوجها بالفكرة، فهو لا يقدر أن يرفض لها طلباً. امرأة مثلها لا يُرفض لها طلب. لديها مقدرة في الحصول على ما تريد، بجسدها تارة وبنقودها تارة أخرى. وعن طريق جسدها المثير هذه المرة طلبت منه إقامة مسابقة للشطرنج في سجن الموت سترعاها هي، وتُموّلها وستدفع من مالها الكثير من أجل أن ترى اللورد المزعوم. رفض الجميعابي الفكرة في البداية لأنها تعرّض مهنته للخطر، وقال: لا. وكان يقصدها. لكنها حينما قلعت ملابسها أمامه قطعة. . قطعة. . قال: نعم. وألف نعم.

اتصلت منى سعيد بأمجد وسارة وقالت لهما:

-كل شيء جاهز. سنزور السجن بعد أسبوع. استعدا من الآن.

***

{29}

كان اللورد يأكل طعام فطوره، ويُفكّر في اللعنات المتتابعة التي ظلّت تتساقط عليه يومًا بعد يوم مثل الأمطار الثلجية العنيدة، إلى أن سمع وقع أقدام غريبة غير معهودة لديه. كان يعرف وقع أقدام الحُرّاس ويميّزها عن بعضها. حينما يسمع خطوات بعيدة تصحبها قهقهات متقطِّعة فهي تعني إنهم قادمون لكي يسكبوا سطل الماء البارد على جسده، وحينما تكون الخطوات سريعة ومتتابعة فهذا يعني أن طعام الفطور قد وصل. وفي المساء حينما يكون وقع الأقدام واضحًا فهذا يعني أنهم قادمون لكي يضربوه، وينزلوا جام غضبهم عليه. لكن الشيء الذي لم يستطع اللورد معرفته، وأصبح بالنسبة له كاللغز المحير هو لمن هذه الأقدام التي تتجه نحو الآن؟

انتظر اللورد بقلق قدوم هذا الغريب الذي عندما وصل إلى زنزانته فتح بابها وجلس على ركبتيه. صمت هُنيهة ثم قال:

-كيف حالك يا لورد؟ أجاب اللورد مستنكرًا:

-من الأفضل لك أن تسأل نفسك كيف يبدو حال سجين في زنزانة ضيّقة بطول متر. أجاب الضابط ببرودة أعصاب:

-حسنًا. لن اهتم بهذا الكلام. سأقدِّم لك عرضًا. إن كنت لا تعرفني فأنا أدعى عاطف الجميعابي، نائب مدير السجن الجديد. قال اللورد له:

-من يهتم.

أكمل عاطف:

ستقام مسابقة للشطرنج بعد عدة أيـام. سيحضرها أباطرة الشطرنج. أفضل من لعبوا الشطرنج داخل السجن. الأشخاص الذين صُنعت اللعبة خصيصًا لهم. اذا فزت بالمسابقة، وجلبت الأموال إلى خزينة السجن، ستتمتع بثلاثة مزايا. أولا: سيتم إرجاعك إلى زنزانة الفلاسفة الأغبياء المحكوم عليهم بالإعدام، وثانيا:ستتم تبرئتك من جريمة قتل حريقة، والأهم من ذلك أن هذه المسابقة قد تجلب لك قدرًا من المال.

ابتسم اللورد. هو لم يقل شيئًا لكن ابتسامته قالت: ماذا سيفعل سجين بحفنة من النقود؟

ولأنه اشتاق لمساحة حرية أكبر، وأشتاق أيضًا إلى صديقيه عمر كومبو وعثمان حركة الذي لم يسمع خبر إعدامه بعد، قبل العرض. هز رأسه موافقًا. وقال:

-سأجلب النقود إلى مؤخرة السجن.

ابتسم عاطف الجميعابي. ومضى.

الشهور التي قضاها داخل زنزانة الحبس الانفرادي غيرّته تمامًا.

غيّرت سلوكه، ونمط حياته رأسًا على عقب. لم يعد ذلك الرجل الهادئ الذي يعزف على الكمان. أصبح قاسيًا وعنيفًا، وكثير السّب والشتم. كان مستعدًا لقول كلمة قبيحة في كل لحظة يرى فيها جلّادًا أمامه، أو يسمع وقع أقدامه. تعلّم البصق على وجوه الجلادين الصغار، وإشهار إصبعه الأوسط أمامهم. تغيّر كليًّا لم يتبقَ منه شيء جميل. الزنزانة أخذت روحه الجميلة، والمرحة وتركت عِوضًا عنها روح شرسة وعدوانية. لكن ما لم تستطع الزنزانة اقتلاعه، هو حب سارة. ذاك الحب العميق الضّارب في الجذور.

***

{30}

وجاء اليوم المنشود بسرعة. التقت منى سعيد مع أمجد فلسفة وسارة في منزلها بوسط الخرطوم بحري. ثم تحركوا ثلاثتهم برفقة زوجها عاطف الجميعابي الذي أتى به القدر من مكان بعيد ليعيد الفرحة إلى الكمنجات الحزينة في وقت تقطّعت فيه كلّ الأوتار. استقلوا سيارة فارهة من سياراتها. استغرق وصولهم إلى سجن الموت قرابة الأربع ساعات. وخلال الرحلة لم يتحدثوا كثيرًا عن الرجل الذي يودُّون الالتقاء به، أو حتى النظر إليه من بعيد. كل أحاديثهم كانت تدور حول الطريق، الزّحام، والمشاهد التي تطل عليهم من خلال النوافذ الزجاجية للسيارة. لكن أمجد فلسفة أثار نقاشًا مع عاطف الجميعابي عن الفلسفة من وراء العقاب. سأله:

-كضابط سجن برأيك هل السجن رادِع؟ أجاب عاطف بسرعة:

-نعم.

-لو كان السّجن رادعًا لماذا يعاود المجرمون الكَرّة؟ أعني لماذا يسرق اللص الخارج من الزنزانة لتوّه؟

-لا أعرف.

بدا عاطف مُنزعجًا من أسئلة أمجد فلسفة المهينة له. وتمنى في أعماقه أن تنتهي الرّحلة بسرعة. وذلك لأن أمجد فلسفة ظلّ يطرح المزيد من الأسئلة التي لا يقدر ضُبّاط السّجن على الإجابة عنها، والتي تُسبّب لهم الإهانة، وتكشف مدى تواضعهم. وبما أن عاطف الجميعابي كان السائق وقتها زاد من سرعة السّيارة، لينتهي بهما النقاش عند البوابة الرئيسية لسجن الموت.

ولمّا دخلوا إلى فناء السجن كانت مسابقة الشطرنج على وشك الانطلاق. أكمل السجناء طعام الفطور للتّو، وتحرّكوا في مجموعات وصفوفٍ طويلة إلى الساحة الخلفية للسجن. سُمِح لثلاثة مجموعات منهم بحضور المسابقة، وبقيتهم أُرجعوا إلى زنزاناتهم. كان عدد الحضور إلى الساحة الخلفية حوالي أربعين سجينًا، مقسمون بالتساوي بين سجن الموت والسجون الأخرى. وبما أنه ستكون هناك فتاتين في الساحة فقد تم تشديد الحراسة، ومنع السجناء من الاقتراب منهما، أو حتى النظر اليهما.

-السجين الذي يتجرأ وينظر إلى زوجة نائب مدير السجن سيحاكم بالسجن المؤبد. هكذا تحدث أحد الجلادين الصغار.

الساحة الخلفية للسّجن كانت تضُجّ بسجناء آخرين غير سجناء سجن الموت. كان من السهل تمييزهم من طريقة كلامهم، والألفاظ التي يستخدمونها، وكذلك من خلال الملابس التي يرتدونها. كانت ملابسهم برتقالية اللون عليها بقع سوداء قاتمة، وعلى رؤوسهم قبعات من القماش المقوّى. كما أنهم لم يختلطوا بسجناء سجن الموت، وظلت هناك مساحة بينهم، وهي مساحة حدّدَها الجّلادين بثلاثين مترًا. أما سُجناء سجن

الموت فكانت تُميّزهم ملابسهم السماوية القريبة إلى الأزرق، ولم تكن هناك قبعات على رؤوسهم. لكنهم كانوا يُحدِثون ضجيجًا، ويشجّعون بحماسٍ منقطع النظير. حماس كبير لا يسعه صندوق شطرنج.

في ذلك الوقت كان اللورد غائبًا، لأنه مازال بداخل زنزانته. ومن المرجّح أن المسابقة ستنطلق دونه. أما عمر كومبو فقد كان موجودًا بين السجناء. كان مُتحمسًا جدًا لأنه اليوم سيتمكن أخيرًا من التحدث إلى اللورد بعد انتهاء المسابقة، وسيكلّمه بكل التفاصيل حتى يزيل ذاك الحِمل الثقيل عنه.

من غير اللورد بدت رقع الشطرنج حزينة، وخاوية. بدت كما لو أنّها رقع من الفراغ المُرّقط. ورغم أنه لا يعلب الشطرنج كثيرًا، لكنه حينما يلعب فإنه يلعب كما لو أنه لم يلعب من قبل. حتى الآن لا يُعرف سبب تأخره، الجميع في انتظاره، حتّى الطاولة الجديدة التي جُلِبت خصيصًا للمسابقة كانت تنتظره. أمجد فلسفة ينتظره، وحبيبته سارّة أيضًا تنتظره، وفي بيت الوزير طفلةٌ صغيرة تنتظر عودته. أما منى سعيد فلم تقدر على الانتظار أكثر لذلك طلبت من زوجها الذهاب بنفسه إلى الزنزانة، وجلب اللورد من رقبته إلى طاولة الشطرنج. قالت له غاضبة:

-أين اللورد؟ أنا لم أدفع كل هذه النقود لأرى هؤلاء الأغبياء. ثم أشارت بسبابتها إلى السجناء الذين كانوا يلعبون الشطرنج.

تكفلت منى سعيد بأي شيء. الطعام الجيّد الذي سيقدم أثناء اللعبة، وعصائر البرتقال المُعلّبة، البلح، والحلويات. كما أنها تكفلت بدفع مبالغ

كبيرة لمديري السجون الأخرى من أجل السماح بمشاركة نزلائهم في هذه المسابقة، هي أيضًا جلبت الطاولات الحديدية التي تقام عليها اللعبة الآن، والكراسي البلاستيكية أيضًا. فيما مضى كانت جولات الشطرنج تقام عادة على الأرض، لكن بفضل منى سعيد أصبحت الجولات تقام في بيئة جيدة. فعلت كل هذا من أجل اللورد، كي تراه وتتأكد بأم عينها هل هو محمود فخر الدين عازف الكمان المجنون أم لا؟

اللورد كان مريض جدًا ذاك اليوم، لم يقوى على الحركة. عيناه زائغتان، جسده بارد، ويتنفس بصعوبة بالغة. لذلك لم يجلبه الحرّاس إلى الساحة. وبعد انتظار طويل جاء أحد الحُرّاس إلى عاطف الجميعابي الذي كان يقف إلى جوار زوجته منى سعيد، أخبره بأن اللورد ليس بخير، ولن يقدر على خوض جولة واحدة. قال الجلاد الصغير لسيده:

-هومتعب، ومرهق مثل تمساح صغير نجى لتوه من موت محتّم. وعلى ما يبدو فإن اللورد لن يلعب اليوم لكنه ربما سيعلب غدًا أو بعده طالما أن المسابقة ستستمر لثلاثة أيام.

-اذا ما استمر على هذه الحال، ارجعوه إلى زنزانته القديمة.

-حاضِر سيّدي.

التفت عاطف الجميعابي نحو زوجته قائلًا:

-يقول الحرّاس إن اللورد مريض جدًا

-أووه. لقد سمعت.

-حسنًا. إن كنت تودين الذهاب إلى زنزانته. سأرافقك إلى هناك.

وسألها:

-ما قصة هذا الرجل؟

-ألم أخبرك من قبل؟

-نسيت. نحن الضباط ننسى كثيرًا. إنها مشاغل السجن.

-تقريبًا لست مضطرة لأسرد لك القصة ألف مرّة. دعك منه الآن. سأذهب لأخبر رفقائي بالأمر.

كانت سارة تجلس على أحد الكراسي البلاستيكية، وتتابع إحدى الجولات الجارية بين سجينين بينما كان أمجد فلسفة مشغولًا بالنقاش مع أحد النزلاء حول بعض المسائل في السجن. ورغم أن عمر كومبو كان يقف بالقرب من سارة، لكنها لم تره ولم يرها.

جاءت منى سارة تبحث عنهما. كانت تنادي سارة. . سارة. أمجد. . أمجد. ولما قامت سارة من الكرسي رآها عمر كومبو. وتفرّس في ملامحها كي يتأكد من أنها ابنة الوزير. فآخر مرّة رآها فيها كانت قبل سبع سنوات.

لقد جاء بها الحب للبحث عنه بين السجناء. والحب يودي بالإنسان إلى المستحيل. فمنذ تأسيس السجن لم يحدث أن دخلت فتاة إلى فناءه، وجلست على كراسيه، فكرة دخول فتاة إلى سجن الرجال كانت مخاطرة كبيرة. رفضها عاطف الجميعابي أولًا، لكن بعد إصرار زوجته قبِلها بامتعاض.

رغم وضع الترتيبات الأمنية المناسبة، وتقليل عدد السجناء المشاركين في المسابقة إلى أربعين سجينًا فقط، لكن المضايقات كانت حاضرة. فمن

داخل الزنزانات البعيدة كان السجناء يصفِّرون ويصرخون ويتفوّهون بعبارات بذيئة. لدرجة أن منى سعيد سمعت صوتًا يقول:

-أرغب في ممارسة الجنس معكِ.

حينما التقت منى سعيد بكل من سارة وأمجد فلسفة، أخبرتهما باستحالة مقابلة ذلك السجين المزعوم اليوم. ببساطة لأنه مريض. لكن عليهم العودة بعدَ غدٍ. لأن اللورد سيكون حاضرًا وقتذاك.

كان بإمكان عمر كومبو التّحدث مع سارة، إن رغب بذلك. فالمسافة بينهما كانت تسمح بالدخول في محادثة. لكنه اكتفى بمراقبتها وهي تنضم إلى أمجد فلسفة، ومنى سعيد. توقفوا قليلًا بالقرب من العربة، تحدثوا قليلًا. ثم استقلوا العربة وعادوا ادراجهم.

ابتسم عمر كومبو وهو يرى العربة الفارهة تعبر بوابة السجن الرئيسية إلى الخارج. هو الوحيد الذي يعرف كل شيء. يعرف أن سارة بخير، وأنها ما زالت تُحب محمود فخر الدين بعد كل هذه السنوات. يعرف أن سيدة الأعمال المشهورة جاءت إلى هنا من أجل المقطوعات الموسيقية، وأن أمجد فلسفة جاءت به الصداقة إلى هنا. وكُلّهم حتى هو نفسه جاء به الحب إلى هنا. الحب الذي يحرق ما حوله.

***

{31}

في نفس الليلة علِم الوزير بخبر زيارة ابنته إلى سجن الموت. تأتيه الأخبار من كل مكان، لأنه كان يجنّد أشخاصًا لمتابعة ابنته. في ذلك اليوم جاءه اتصال من أشخاص يعملون لحسابه في السجن. أخبره المتصل بأنّه رأى ابنته تتوسط النزلاء، وتكلمهم. ولا يفصلهم عنها أي شيء عدا صندوق شطرنج. وطاولة حديدية بطول نصف متر.

بعد كلّ هذه السنوات، والعزلة الطويلة التي عاشتها في القاهرة، الألم والمعاناة، الغربة والحرمان، بعد كل هذه الأحاسيس الكئيبة، لم تتب سارة عن الحب. كانت مستعدة لأن تحب محمود فخر الدين بعد ألف عام من الذل، ألفي عام من العزلة. حتّى وإن ماتت فإنها كانت ستعشقه كثيرًا في برزخها.

فكر الوزير كثيرًا، وقال مخاطبًا روحه الشريرة. «لم لا أقتله؟ رجل مثلي بإمكانه أن يقتل أي شخص في هذا العالم دون أن يسأله أحد. سأعدمه، سأسوقه إلى حبل المشنقة. منحته فرصة للتوبة، سبعة أعوام كفيلة بالتوبة عن الحب، سبعة سنوات كفيلة بترك ابنتي في حالها. لماذا لا يفهم هذا المعتوه؟ ».

مع إشراقة صباح اليوم التالي، تحرّك الوزير ناويًا الذهاب إلى سجن موت. للانتهاء من حياة اللورد. حدث نفسه قائلًا:

-ريثما أصل إلى هناك سآمر الجلادين بإعدامهما، هو وعمر كومبو.

ولما وصل الوزير إلى سجن الموت، كانت هناك مجموعة من السجناء في الساحة الخلفية يلعبون الشطرنج. دلف الوزير إلى مكتب مدير السجن مباشرة، وأمره بإعدام الإثنين عمر كومبو واللورد اليوم. قال مدير السجن والخوف يخنقه:

-حسنًا. لنعدم عمر كومبو، أمّا اللورد يستحسن أن نتركه ليوم آخر. فهو سيجلب الأموال لخزينة السجن.

-أيّة أموال؟

-كما ترى هناك مسابقة شطرنج جارية. تكلفت سيدة أعمال مشهورة، والتي هي زوجة نائبي بدفع جميع التكاليف وستدفع نقودًا كثيرة لترى اللورد وهو يلعب. لذلك أرجوك سيدي. دعه يعيش ليوم آخر. الأمر يصب في مصلحتنا.

-حسنًا. سأذهب لأراه. وأكلّمه لآخر مرّة. وربما سألاعبه. إن هزمني مرتين متتاليتين، سأتركه يعيش ليوم آخر. أعني سأدعه يجلب النقود لخزينتكم. التي هي خزينتي بكل تأكيد.

-حسنًا. هو لم يعد بزنزانة الحبس الانفرادي لقد أرجعناه إلى زنزانة الفلاسفة الأغبياء. سيقودك الحرّاس إليها.

-حسنًا.

نسبة لحالته الصحية السيئة، أرجع اللورد إلى زنزانة الفلاسفة الاغبياء المحكوم عليهم بالإعدام. وهناك أخبره عمر كومبو بكل شيء. ماضيه، حاضره، ومستقبله. قال عمر كومبو وهو يضم دفتر عثمان حركة إليه:

-إن كنت ستسألني عنه، فهو الآن يعيش حياته البرزخية. لقد تم إعدامه. لكنه قبل أن يذهب من هنا طلب منّي ألا أكون جبانًا وأخبرك بكل التفاصيل التي اعرفها عنك.

تأسف اللورد لموت عثمان حركة. وسالت دمعتين حارقتين على خدّيه. أما عمر كومبو فواصل حديثه:

-تعرف أنّي رجل سيء، رجل لا يمكن وصف سوؤه بالكلمات. الآن نحن على مشارف الدخول في عامنا السابع من الحبس، عشنا سويًا، وأكلنا طعام الفطور سويًا، قصصت عليك آلاف القصص إلا أن هناك حكايات، وقصص تخصك كان بإمكاني أن أقصها عليك من أول يوم لي هنا. لكنني ضمرتها في صدري، وخبئتها بلا سبب. وبمجرد نقلك إلى زنزانة الحبس الانفرادي شعرت بالندم على عدم قصها عليك. اليوم وقد عدت يا صديقي لا شيء سيوقفني من سرد الحكايات». ابتسم اللورد، وهو يسمع كلمات عمر كومبو الغريبة بعض الشيء. واصل عمر كومبو:

-لا أعرف من أين أبدأ. . وبما أنني المتحدث، سأبدأ بنفسي. أنت متهم بقتلي يا لورد. وضحك اللورد ضحكة خفيفة. شعر بأن عمر كومبو يمازحه. لكن عمر كومبو واصل سرد حكايته بثقة: أعرف أن هذا الكلام لا يصدقه أحد. يبدو غبيًا مثل حكاية عجوز، لكن هذه هي

الحقيقة. الوزير يتهمك بقتلي. القصة طويلة جدًا لذلك سأختصرها. قاطعه اللورد قائلًا: لا لا. ليس هناك ما نفعله داخل هذه الزنزانة اللعينة لذلك أغرقني بالتفاصيل. واصل عمر كومبو:

-تعرف جيدًا، أننا كنا نطارد سارة. هي كانت تحبك جدًا لذلك لم تهتم بمطارداتنا. كنّا نلاحقها إلى أي مكان ذهبت إليه. وفي ذاك اليوم عندما ذهبت إلى منزلك، غضب والدها جدًا وأمرنا بضربك وركلك واقتيادك إلى مكان مجهول. ومن ثم انتهى بك الحال هنا. أخذ نفسًا عميقًا ثم وأكمل:

-وبعد شهور اكتشفت اسرة الوزير أن سارة حامل. هنا تدخل اللورد:

-مِن مَن؟ أجابه عمر كومبو:

-سارة لم تكن عاهرة. هي حبلت منك أنت تحديدًا يا لورد. أكمل عمر كومبو دون الاهتمام بالمفاجأة التي شعر بها اللورد:

-سارة حملت منك شخصيًا. وعلى ما يبدو فإنها أنجبت فتاة. وقال مبشرًا اللورد:أنت الآن أب لفتاة تبلغ سبعة أعوام. وعمّا قريب ستضمها إليكِ. ثم واصل:

-هذه القصص كانت معروفة في نطاق الأسرة. أنا نقلتها للخارج. لذلك انتقم مني الوزير وأرسلني إلى هنا. وقبل إرسالي أُخْبرت عن طريق جماعته بأنني مت وأن من قتلني. سكت لبرهة ثم أتم: هو أنت يا لورد.

قال اللورد مازحًا:

-وهل صدقت؟

-كنت مجبورًا على التصديق. المقهورون مثلي ومثلك يصدقون أي شيء. الآن نحن ضحايا الوزير. قاطعه اللورد:

-لا بل نحن ضحايا العزف. واصل كومبو:

-الشيء المهم أنّي رأيت سارة وصديقك في الساحة الخلفية للسجن. رأيتهما البارحة. هذا يعني أنهما جاءا للبحث عنك. ولمعت عينا اللورد فرحة. وقبل أن يُكمل عمر كومبو سرد قصته كُلّها سمع الاثنان وقع اقدام قادمة نحو الزنزانة.

جاء الوزير برفقة الحرّاس، أمسك بالقضبان من الخارج لم يكلّف نفسه عناء الدخول إلى الزنزانة. وقف عند بابها وقال لهما:

-استعدا للغد. غدًا وعند الثامنة صباحًا سينتهي كل شيء. ثم وضع سبابته على رقبته، كأنه ينوي ذبح نفسه. لم يضف أي كلمة أخرى. ترك القضبان ومضى.

***

{32}

لم يناما تلك الليلة. من المستحيل النوم وشبح الموت يُخيّم في ذاكرتهما. تحدّثا كثيرًا، وحكيا حكايات قديمة. وفي كل قصة أو حكاية يبدو عمر كومبو رجل خسيس، ونذل. لأنه كان يحكي قصصًا ضمرها في قلبه لسنوات. أحداث مؤثرة لو حكاها من الأول لتغيّرت أشياء كثيرة.

الشيء الوحيد الذي أرعب اللورد حقًّا أنه لن يتمكن من الالتقاء بصديق طفولته أمجد فلسفة مجددًا. حينما كان في زنزانة الحبس الانفرادي كان يبكي بحرقة عندما يتذكره، ويسترجع الأيام الجميلة التي عاشاها. لكن الأقدار أبت أن تجمعهما مجددًا، فها هو يواجه الموت المحتّم دون معرفة أي حرف عن صديقه.

انقضت تلك الليلة بسرعة. وفي الصباح سمعا صرير باب الزنزانة يجلجل مثل الرعد. فيما مضى وعندما يسمعان صرير الباب كانا يستعدان لتناول الطعام، أما اليوم فعليهما الاستعداد لتناول وجبة الموت. تلك الوجبة الدسمة التي حالما يأكلانها فإنها سيشبعان إلى الأبد. أتكأ اللورد على سياج الزنزانة الحديدي، أخرج تلك الورقة القديمة التي كتبها في أول يوم له في الزنزانة، وظلّ يحتفظ بها لسنوات طويلة. أخرجها من

جيبه، وقرأها على عمر كومبو:

" لا أعرف سبب مجيئي إلى هنا، كل الذي أعرفه أني كنت في طريقي إلى صديقي أمجد فلسفة، لنتناقش حول نظريته الأخيرة عن الجنس، وانتهى بي الحال في مكان لا أعرفه ".

أطبق ورقته التي احتفظ بها لسبع سنوات كاملة ووضعها في جيبه. هذه الورقة هي آخر ما تبقت له من ذكريات، رغم كتابتها بين جدران الزنزانة، لكنه كان يرى فيها صورة صديقه أمجد فلسفة، وحنان والدته، وروعة حبيبته سارة، وكل الأفكار التي لم تناقش في تلك الليلة البعيدة.

دخل الجلاد عليهما، يخبرهما باقتراب موعد تنفيذ الحكم، وأن الإذن جاهز، والمشنقة جاهزة. ضرب على رقبة اللورد بقوة، ثم أردف بمتعة خاصة: والرقاب أيضًا جاهزة. ثم وضع الأصفاد عليهما. ابتسم اللورد ابتسامة غامضة، وبصق في وجه الجلاد. ولأن فمه كان يابسًا لم تصل شذرات اللّعاب إلى وجه الجلاد العبوس. أغلق الجلاد باب الزنزانة ومضى إلى سبيله.

السابعة صباحًا. اقتربت ساعة الموت. لم تتبقَ له سوى ساعة واحدة، عليه أن يعيشها كما ينبغي، وبأفضل طريقة ممكنة، عليه أن يختار أفضل الأشياء، وأقربها إلى نفسه، عليه أن يهيئ نفسه لتلك الرحلة، ذاك المشوار الذي لا يمكن العودة منه أبدًا. كل التفاصيل تزاحمت في رأسه. هل سيدخر هذه الدقائق من أجل والدته الميّتة منذ سنوات؟ والتي كان يحبها حبًا جمًا، وما زال. أم لحبيبته سارة التي تحبه بجنون، ومستعدة لأن

تكون معه في أحلك المواقف والظروف؟ أم سيدّخرها من أجل طفلته فرح؟ التي لم يرها حتى الآن. هل سيقدمها قُربانا لآلهة الكمان العظيمة؟ أم سيستثمرها في تدخين السجائر؟ أم سيفنيها في وداع أصدقائه الجدد؟ رفقاء الزنزانة والمعاناة والآلام.

تتزاحم الأفكار في رأسه، والدقائق تفر منه لتجلب له ما يخشاه، ما لا يعرفه ولا يتوقعه، ما يظن أنه جميل ليأتي ويدمر جمال ما هو موجود، وما يظن أنه سيئ، وقبيح ليأتي، ويضفي لمسة من الجمال والروعة على كل جوانب الحياة. كانت الدنيا تتأرجح أمامه، وتميل نحو نهايته، إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة. لحظة الاعدام.

قرأ الجلاد وثيقة الاعدام عليهما. ثم أضاف وهو يحاول سحب اللورد من زاويته التي يتكئ عليها:

-اليوم سينتهي كل شيء. وبمساعدة من جلّادين آخرين، تم تغطية وجهيهما بقماش أسود. ثم اقتيدا إلى غرفة الإعـدام. حيث ينتظران مصيرهما الذي يقرره الوزير المبجل.

بعد لحظات قليلة دخل الوزير المبجل إلى غرفة الإعدام، وهي غرفة صغيرة تقع في منطقة وسطى، تسمح لجميع السجناء برؤية اللحظة الحاسمة، لم يكن بمقدور السجناء مشاهدة جسد المحكوم عليه بالإعدام كاملًا، ما يمكنهم رؤيته هي رقبته فقط، التي عندما تميل إلى الأمام يُدرك السجناء أن صديقهم قد فارقهم إلى حياة أخرى. لحظة دخول الوزير المبجل، وقبل أن يمنح الجلاد الإذن بإعدام عمر كومبو أولًا، ثم اللورد

ثانيًا، أزاح الوزير المبجل الغطاء الأسود عن وجهيهما. وقال موجها كلماته للجلاد:

-ماهي أمنيتهما الأخيرة؟

يا له من رجل شهم، وكريم. الهيبة التي أظهرها لا يمكن تجاهلها بالمرة، ولأن اللورد فكر في أمنيته الأخيرة قبل دخوله إلى هذه الغرفة اللعينة، كان من السهل عليه أن يجيب قبل عمر كومبو. لكن الجلاد منعه، ودفعه جانبًا، ولما كان الوزير المبجل هو صاحب القرار، الآمر والناهي سمح لـ اللورد بقول أمنيته الأخيرة.

-أمنيتي أن أحظى بجولة شطرنج أخيرة. ثم أردف: معك. وأشار بسبابته نحو الوزير.

ابتسم الوزير المبجل، تذكّر حديثه مع مدير السجن بالأمس القريب. لذلك أمر الجلادين الصغار بإحضار صندوق الشطرنج في الحال. أما عمر كومبو المسكين، فكانت أمنيته أن يحظى بمتابعة المباراة.

جلس اللورد، والوزير المبجل على كرسيين متقابلين، وتقاسما المنضدة، التي تستعمل في تنفيذ حكم الإعدام في اللعب. كان السجناء ينتظرون رؤية رقبة اللورد تميل إلى الأمام، ينتظرون بشغف أن يتدفق دمه ويسيل كشلال على الأرض، وعندما جاءت الثامنة صباحًا ولم تسقط أي رقبة إلى الأمام، راح أغلب السجناء يضربون على السياج الحديدية بأكوابهم البلاستيكية، احتجاجًا على تأخير تنفيذ الحكم.

في تلك الأثناء كان اللورد هادئًا يحاصر بيادق الوزير المبجل مستخدمًا

افتتاحية نابليون، وهي من أساسيات لعبة الشطرنج. سرعة نقل البيدق، ومحاصرة الملك بنقلات غير متوقعة، والهجوم المتواصل هذه التقنيات ساهمت في إنهاء اللعبة بسرعة. خسر الوزير المبجل الجولة، خسرها بسرعة خيالية، وبعبارة جديدة عليه، فكما هو متوقع أن تنتهي اللعبة بمحاصرة الملك، وبعبارة متعارف عليها وسط لاعبي الشطرنج وهي: كش ملك، أو كش مات، أو ربما تختصر كش فقط، لكن ما قاله اللورد كان مختلفًا نوعًا ما، ولا علاقة له بعادات وتقاليد اللعبة. لأن النهاية في جولة الشطرنج تكون دائمًا بالموت. موت الملك. قال اللورد: كِش حي.

في الحقيقة كانت هذه الجملة بمثابة رسالة مباشرة إلى الوزير المبجل، الذي هبط من السماء ليحكم على الناس بالإعدام، ليوقف تنفيذ الحكم إلى أجل غير مسمى. ويطلق سراحه، أو على الأقل يرجعه إلى زنزانة الفلاسفة الأغبياء. لكن، طالب الوزير المبجل بجولة أخرى، فهو لم يقتنع بخسارته، ولم يستسلم بعد، أو ربما لأنه لم يكن مركزًا بما فيه الكفاية، أو ربما لأنه تذكر الوعد الذي قطعه لمدير السجن. وعلى الأرجح أن عدم تركيزه ينبع عن المشاكل الأسرية التي يعيشها، فزوجته سناء تطن في رأسه طنينًا أشد من طنين النحل، وابنته سارة فقدت عذريتها، حبلت عن طريق الخطأ، وانجبت طفلة على يد من يلاعبه الآن.

خسر الوزير المبجل جولته الثانية، وقد كان من دواعي هيبته، وكرامته ألا يطالب بجولة أخرى. ولأن اللورد كان مستعدًا لهزمه ألف مرة، فكل الظروف كانت تصب في صالحه، وتمنحه أفضليةً على خصمه، وتقوِّي

موقفه أكثر فأكثر، فتصبح خسارته مستحيلة.

لم يكتفِ الوزير بالخسارتين أمام أفضل من لعب الشطرنج في سجن الموت. وقبل أن يخرج من غرفة الإعدام أمر الوزير المبجل الذي هبط من السماء ليحكم على الناس بالإعدام، بتنفيذ حكم الإعدام على عمر كومبو بسرعة. والإبقاء على اللورد لأجل غير مسمى. ربما سيزور الوزير سجن الموت في الغد، أو ربما بعده، أو ربما لن يأتي إلى الأبد.

وقبل أن يغادر الوزير غرفة الإعدام الصغيرة. أمر الجلادين بإرجاع اللورد إلى زنزانته، والسماح له بالمشاركة في مسابقة الشطرنج التي ستجرى بعد ساعتين. غادر الوزير السجن بعد أن تلقى ثلاثة هزائم ساحقة. اثنتين منهما على صندوق الشطرنج، والثالثة على رقعة كبريائه.

***

{33}

عند العاشرة صباحًا جاءت سارة برفقة أمجد فلسفة، ومنى سعيد إلى سجن الموت. جاؤوا لمتابعة مسابقة الشطرنج في يومها الأخير، وكذلك من أجل رؤية اللورد. لم يكن لديهم عِلم بقدوم الوزير إلى السجن، ومغادرته قبل لحظات. كما أنهم لم يكونوا على علم بعودة اللورد العجيبة من حبل المشنقة، في وقت ظن الجميع أنه سيعدم. البارحة كان مريضًا، اليوم نجا من الشنق، وغدًا لا يعرف أحد ما الذي سيحدث معه. حياته مثل اللغز العجيب.

فور دخول سيدة الاعمال المشهورة إلى سجن الموت، أمر نائب مدير السجن بإحضار اللورد إلى الساحة الخلفية للسجن. تارة يأمرون بإحضاره إلى غرفة الإعدام وتارة أخرى يأمرون بإحضاره إلى طاولة الشطرنج. في سجن الموت لم تكن هناك آلية محددة لإصدار الأوامر، فتارة تصدر الأوامر من الوزير، وتارة من مدير السجن، وتارة من نائبه، وبعض القرارات يتخذها الجلّادون الصِّغار. يعيش السجن حالة من الفوضى العجيبة. تلك الفوضى التي تجعلهم يسجنون أحدًا دون معرفة اسمه أو جريمته.

ولأنه فارق صديقه الأخير في الزنزانة عمر كومبو الذي أُعدم قبل ساعات، كان اللورد حزينًا جدًا. كلّ أصدقائه رحلوا عنه، أضحى وحيدًا مثل جنّي محبوس في جرّة. أمسك بدفتر عثمان حركة، واتكأ على زاويته حيث تلك العبارة «لن أتوب أبدًا». وراح يقرأ من الدفتر:

مهما أرهقتك الحياة
وأتعبتك كثيرًا جدًا
مللت من الألم، ومن المعاناة
مهما تكالبت عليك الأيام،
وضاع منك الأصدقاء القُدامى
اختفوا، ماتوا، أو اعدموا
حتّى وإن ضاعت حبيبتك
أحزن عليها كثيرًا، أبكي كثيرًا
لكن أرجوك لا تتوقف عن الحلم.
أمضي نحو وجهتك البعيدة
نحو الشمس في السماء
نحو القمر في الفضاء
إن حوّلوك من كمان إلى شطرنج
ومن مناضل إلى مجرم
ومن نغمة إلى صمت
لا تستسلم. . لا تيأس.

أمضي نحو مجدك بهدوء
لا تتوب. لا تتوب أبدًا.

احتضن اللورد الدفتر، دفن وجهه بين كفّيه وبكى بأسى.

ولّما رفع رأسه ليتأمل سقف الزنزانة، وقصاصات الأوراق التي بالنافذة، فليس لسجين وحيد عمل آخر سوى تأمل السقف، والشقوق التي على الجدار. في تلك الاثناء ظهروا ثلاثتهم أمام باب الزنزانة، أمجد فلسفة، سارة، ومنى سعيد. ومن خلفهم أطلّت طفلة صغيرة تحمل حقيبة كمان على ظهرها.

لم يصدق اللورد نفسه، كان ظهورهم مثل الحلم. هو كان يعيش في كابوس مُرعب، وعنيف. وفجأة انقطع ذاك الكابوس وحلّ محله حلم آخر، جميل ولطيف. تضاربت المشاعر في داخله، أيضحك؟ أيبتسم؟ أيصرخ؟ ماذا عليه أن يفعل؟ هل ما يراه حقيقة أم مجرد وهم وخداع؟

منذ سبع سنوات كان الحزن هو الشعور الغالب على حياته، والآن تلاشى ذاك الشعور إلى الأبد. تلاشى مثل سراب في طريق مُقفِر، مثل سحابة في ليلة ماطرة.

تحرّك نحوهم، نحو باب الزنزانة، ما زالت الأصفاد على يديه، وقدميه. احتضنهم جميعًا من خلف القضبان. لم تكن للكلمات وجود في تلك اللحظة. أصوات نحيب متقطعة، وآلام عميقة، وأحاسيس أخرى تنخر الدواخل وتسبب القشعريرة. مدّت فرح يدها الصغيرة عبر القضبان، التقطها وضمّها إليه. وسالت الدموع غزيرة، وحارقة، أحرقت قضبان

الزنزانة وكلّ قضبان الظلم في العالم.

قال أمجد فلسفة:

-لن تلعب الشطرنج اليوم، ستلعب على الكمان يا صديقي. وبالمناسبة: ما زلت أنتظرك كي نتناقش حول نظريتي عن الجنس. ثم وضع يده على رأس فرح.

وقالت سارة:

-أنا مدينة لك بعمري كله. ولم يدعها تُكمل كلماتها لأنه وضع يده المكبلة على فمه، قائلًا لها: الأفضل أن تصمتي.

أما منى سعيد فسألته:

-هل ستسجل تلك المقطوعات أم لا؟

أومأ رأسه إيجاباً. ابتسمت منى سعيد، لأن حلمها تحقق بعد سبع سنوات من الانتظار. وقالت له مازحة:

-فيما مضى قلت لي إن المال لا يشترى هذه المقطوعات: ماذا يشتريها إذن؟ أجاب محمود فخر الدين:

-الوفاء.

وتدخلت فرح. سألت بصوتها الأبنوسي:

-متى ستعزف لي مقطوعتي الخاصة. وقبل أن يجيب أجابت منى سعيد:

-حالما يخرج من الزنزانة. حدثت زوجي بالأمر.

أمر عاطف الجميعابي بإطلاق سراح اللورد. وسيتدبر أمره مع مدير

السجن والوزير. سيقول لهما لقد اعدمناه، أو قتلناه، المهم هو سيتصرف. ولّما فتح الجلاد باب الزنزانة، وفكّ الأصفاد عنه، مدّت إليه فرح كمانه الكلاسيكي. لم ينسَ العزف عليه، ولم ينسَ أيضًا ضبط أوتاره. رغم كل هذه السنين من اللاعزف ما يزال يذكر جميع مقطوعاته. وضع الكمان على كتفه، أتكأ على جدار الزنزانة، وعزف مقطوعة الاميرة سعاد رقم 1176 وهي المقطوعة التي أبكت الجميع ذات عزف.

في الغد جاء الوزير إلى سجن الموت مجددًا، من أجل إعطاء الأوامر بتنفيذ حكم الإعدام على محمود فخر الدين. جاء بنفسه إلى زنزانة الفلاسفة الأغبياء. لكنه لم يجد بها أحدًا، وجدها فارغة، وحينما جال بناظره في فضاء الزنزانة وقعت عيناه على عبارة مكتوبة بتحد على الجدار:

-لن أتوب أبدًا.

***

عن المؤلف

دفع الله حسن بشير

-كاتب سوداني شاب، وباحث.

-درس البكالوريوس في جامعة الخرطوم، كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية.

-يدرس الماجستير بمعهد الدوحة للدراسات العليا، قطر. قسم علم الاجتماع والانثروبولوجيا. دفعة 2017-2019.

أعمال قصصية:

1 - الحياة ثقب لعين.

2 - عودة مريم.

3 - الرحلة رقم دجاجتين المتجهة إلى الجحيم.

4 - سنلتقي عندما تعود من بروكسل.

5 - موت.

أعمال روائية قيد النشر:

- شظايا

- فازت قصته عودة مريم بالمركز الثاني، في مهرجان الشباب الثاني لولاية الخرطوم 2016.